مدحت عبد الرازق

الخليفة

مستوحاه من ملفات التاريخ

صناعة الديكتاتور

إهداء إلى الأستاذ
جمال الغيطانى

المجد للنشر والتوزيع

مدحت عبد الرازق

الخليفة

رواية

إهـداء

إلى الأستاذ المبدع الذى تعلمت منه السفر بين العصور والترحال فوق صـهوات التـاريخ بحثا عن تجربة الحياة والإنسانية ...

أستاذى : **جـمـال الغيطـانى**

مقدمة

الـطـغـاة شـرط الـغـزاة .. !

كاتب هذا العمل هو مصرى عربى مسلم , يعتز بوطنيته وقوميته وعقيدته . ويشهد أن الحضارة الإسلامية هى أعظم حضارات الإنسانية جمعاء .. ولكننا فى هذا العمل نقدم فترة من فترات الضعف فى تاريخ أمتنا المجيدة , مؤكدين أن ضعفنا كان دائما استثناء من القاعدة وليس القاعدة .

نشب الضعف أظافره حين تخفى الطغيان فى عباءة الدين . حين فسرنا آيات الله حسب هوى السلطة والسلطان . حين نبذنا القوة واستسلمنا للإسترخاء والترف والترهل واللامبالاة . حين رأينا أعداءنا يتوضئون بالدم ولم نصلى صلاة الجماعة .. ! .. وكذلك سيرة الممالك والإمبراطوريات , عصبة قوية تخرج بعافية البداوة وتقيم حضارة عظيمة , ثم إذا أقبلت عليها الدنيا ظهر منها خلق جديد لم يختبر تقشف آباءه وعزيمتهم - وكانت هذه هى سيرة العرب .

و النتيجة :: طاغية تتطيح به ثورة وتسلم الأمر إلى خليفة مستبد , ويخلعه إنقلاب ويصير الحكم إلى أمير غشوم .. وهكذا داوليك حتى ارتمت الأندلس فى أحضان الفوضى ثم تقسمت إلى ما يعرف بـ **" ملوك الطوائف "** الذين عجزوا عن إدراك أمنهم القومى الموحد وزادوا على ذلك بأن دخلوا مع بعضهم البعض فى حروب طاحنة هيأت الأمر إلى عصر الإسترداد وخروج الأندلس من حوزة المسلمين .

والسؤال هو هل كان سقوط الأندلس هو البداية لمخطط طويل ومستمر ؟ . حيث يؤكد التاريخ دائما أن **الطغاة شرط الغزاة** .. وإذا كان غزاة الماضى هم الفرنجة والإسبان والصليبيين , هل سنستسلم لغزاة الحاضر والمستقبل من صهاينة وأمريكان وماسون . . أم أن عودة المد العربى قادمة فوق أمواج الحرية والمساواة والعدل والإخاء ؟ .

أسئلة كثيرة تطرح نفسها وتبحث عن إيجابات لكن تبقى الحقيقة المؤكدة أن .. "" لا أحد يستطيع هزيمتك إلا من داخلك . وأن **الطغاة شرط الغزاة** .

مدحت عبد الرازق

أضـواء علـى الأحـداث

شخصيات سبقت الأحداث ولم تظهر فيها

- عبد الرحمن الداخل : صقر قريش مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس . لم يدع أنه خليفة أو يتمسح فى عباءة الدين .
- عبد الرحمن الناصر (حفيد الداخل) : مؤسس الخلافة الإسلامية بالأندلس . شهدت البلاد فى عهده عصرها الذهبى .
- هشام المؤيد بالله (حفيد الناصر) : عطل العامريون خلافته ولم يبق له سوى الإسم فى عهودهم .
- الحاجب المنصور أبى عامر : مؤسس البيت العامرى والدولة العسكرية .
- الحاجب عبد الملك بن المنصور أبى عامر : آخر الحكام الأقوياء قبل عصر ملوك الطوائف .

أبطال العمل

- الحاجب أبو المطرف شنجول بن المنصور أبى عامر : أول الضعاف من حكام الأندلس وآخر حكام العامريين .
- الخليفة محمد المهدى بالله **(البطل الرئيسى)** : أمير المؤمنين المشهور **بالمهدى المنتظر** . باعث الخلافة الأموية على مرجعية دينية , لكنه أمعن فى إضعاف الدولة والدين معا .. لم تكن له قوة وحزم السابقين ودرايتهم بأمور الملك والحرب , وكان أقرب إلى الدعة والترف منه إلى الهمة والجد . بالغ فى مهادنة الإسبان والفرنجة حتى اخترقوا دولته بعيونهم وتجارهم وأموالهم . أنقلب عليه أهل قرطبة بعدما شاهدوه من فقر الأمة وإذعان خليفتها للأعداء - واشتعلت الأندلس بثورات آلت إلى تقسيمها .
- الحاجب بزواج : رئيس وزراء الأندلس فى عهد الخليفة محمد المهدى .
- المستكفى بالله : أميرا من بيت الخلافة وأغنى رجال جماعته من الأمويين . مطالب بالعرش ويكره محمد المهدى ويراه غير كفئا لمسئولية المنصب .
- جعفر الحديدى : قائد الجيش فى عهد شنجول .

- جؤذر : قائد الجيش فى عهد الخليفة محمد المهدى .
- مهران الصقلبى : رئيس الشرطة وكبير البصاصين .. ورجل كل العصور ! .
- الوزير فائق : ناظر الحسبة الشريف والمشرف على " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " .
- كهرمانة : رئيسة حرملك الخليفة .
- السيدة الذلفاء : زعيمة المعارضة وعميلة لأعداء الدولة من الإسبان والروم .
- حسن الحداد : زعيم المجاهدين الوطنيين .
- جمال الدين الخرمى : زعيم المتطرفين . يعادى الخليفة فى الظاهر ويواليه فى الباطن .
- فهر بن الأشرم : زعيم بربر المغرب - المؤيدين للأمير المستكفى .
- زاوى بن زيرى : زعيم بربر الأندلس - المؤيدين للأمير المستكفى .
- أحمد بن ريحان : زعيم الحركة الشعبية لمناصرة الخليفة " فرقة المهدى المنتظر " .
- الشيخ ريحان : عطار بسوق قرطبة ووالد أحمد .
- عم عدوى : بائع عطور ووالد شمس خطيبة أحمد ريحان .
- **شمس** : **بنت عدوى وخطيبة أحمد** .
- الإمام أحمد بن برد : إمام مسجد قرطبة . ورمز المؤسسة الدينية .
- طاروب : مطربة الخلافة , وهى أيضا راقصة حسناء .
- الأحوص .. والأحمدى : شعراء الخلافة .
- دلال : وصيفة كهرمانة .
- بشر : خادم السيدة الذلفاء . ورسولها المؤتمن إلى ملوك الإسبان .
- رجب المجذوب : المجنون الحكيم ! .

- رودميرو : شاب مسيحى من أبناء البلد .
- الملك سانشو : ملك نبارة .
- الملك شارل : ملك ليون .
- الملك أوردونيو : ملك أوستورياس .
- الملك مالقة : ملك جيليقية .
- الملك جارسية : ملك قشتالة .
- على ابن حزم : عالم أندلسى وفقيه وفيلسوف .
- ولادة : ابنة الأمير المستكفى
- ابن زيدون : شاعر صديق لولادة بنت المستكفى . سيصبح وزيرا بقرطبة ثم اشبيلية بعد تفتيت الأندلس إلى إمارات صغيرة .
- ابن عبدوس : شاعر ينافس ابن زيدون على قلب ولادة .

أشهر مبان الأندلس

* **الزهراء** : مدينة الخليفة بقرطبة بها قصور ولى الأمر ومقر الحكومة ودواوين الوزارات وثكنات الحرس الخلافى . ابتناها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله .

* **الزاهرة** : مدينة رئيس الوزراء " الحاجب " . بناها المنصور أبى عامر لتنافس الزهراء وتكون مقرا لحكمه هو وأبناءه بعد أن عطل الزهراء والخلافة .. وقد أبيدت تلك المدينة تماما فى أحداث الثورة التى أتت بالخليفة محمد المهدى وانتقل الحكم مرة أخرى إلى الزهراء . ومنذ ذلك الحين لم يبق أثرا للزاهرة .

* **مسجد قرطبة** : المسجد الرئيسى والجامعة العلمية ومؤسسة الدين الرسمية , بناه الأمير عبد الرحمن الداخل .

* **معتقل المطبق** : أعنف السجون فى تاريخ الإسلام , لم ينافسه فى بشاعته إلا معتقل المقشرة بمصر فى العهد المملوكى .

* **قبة الورد** : أجمل حدائق الأندلس .

إفتتاحية ..

ورث الحاجب عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر منصب الحجابة – فى الدولة الأندلسية – عن أبيه **" المنصور أبو عامر "** وأخيه **" المظفر عبد الملك "** .. وكان هؤلاء الثلاث قد عطلوا منصب " الخليفة " فى عهد أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله واستبدوا بالسلطان , وأقاموا دولة عسكرية فى جميع ملامحها سميت بالدولة " العامرية " .

وإذا كانا المنصور و ابنه عبد الملك قد استطاعا أن يحافظا على الأندلس من هجمات الإسبان فى الشمال , وأن يصونا وحدة الأمة الإسلامية فى تلك الأصقاع الأوروبية , فإن عبد الرحمن الشهير بـ **" شنجول "** جاء ليهدم كل ذلك .

اتصف بشهوة المال و الخلاعة والمجون . كان منطقه " ان أطيب اللذات ما كان جهارا بإفتضاح " .. أرتفعت الأسعار فى عهده وكثرت المظالم , لكنه يتجاهل كل ذلك . انه لا يجد الوقت لرفع المظالم أو البحث فى الشكايات كما كان يفعل أبوه وأخيه , فهو منصرفا دائما إلى الحريم ومجالس الرقص والغناء ومقارعة كؤوس الخمر .

والدته هى " عبدة " المستعربة من بلاد نبارة شمال الأندلس .. تزوجها المنصور أبى عامر وأسلمت وأنجبت له عبد الرحمن , كانت تدلله بـ " شنجول " حتى شاعت هذه التسميه وحلت محل اسمه الحقيقى .. و يلقب كذلك بـ " أبى المطرف " .

قصير القامة . نحيف البدن . أخذ من والدته " عبدة " شعرها المائل إلى الحمرة فكان من يراه يعتقد أنه صبغ شعره ولحيته بالحنة الحمراء . كما ورث عنها عيناها الزرقاء وبياض بشرتها . يرفض أن يرتدى عمامة على عادة كبار القوم فى العرب ولا تاجا على عادة ملوك أوروبا , بل إن ميله للتحرر فرض عليه أن يترك شعره دون غطاء , ينثره فى شكل أشعث وكأنه يتعمد معاندة التقاليد حتى لو كانت تهذيب وتمشيط .. ! .

الناس يتحدثون قائلين أن عبد الرحمن أو " أبو المطرف شنجول " قد دبر مؤامرة لقتل أخيه العظيم عبد الملك فى العرض العسكرى لكى يأخذ منصب الحجابة بعده .. والحجابة فى الأندلس تعادل منصب رئيس الوزراء .. بل ان هذا " الرئيس " له مدينة فاخرة للحكم تسمى " الزاهرة " .

الزاهرة هى جنة الله فى أرضه .. قصور وزروع .. نافورات ومراع .. أنهار صناعية وشوارع مرمرية .. وفتيات يجرين وراء بعضهن فى فرح وسرور وكأنهن بنات الحور , تملأ ضحكاتهن المغوية أجواء المكان بالبهجة والنشوة . يحيط بالزاهرة حرس الحاجب الأشداء , يستطيع الحارس منهم أن يصوب سهمه إلى الطير فى الجو فيصيبه أو ينازل السبع فيصرعه .

أما معتقل " المطبق " فهو على النقيض من الزاهرة .. انه الجحيم بعينه .. وهو أيضا كبير بحجم المدينة .. أسواره عالية تدارى خلفها نيران السعير .. يختفى فيه المعارضون .. به سجون وزنازين مختلفة الأحجام والأشكال .. بعضها فوق الأرض وبعضها قبورا تحت الثرى .. دهاليز وممرات ضيقة متعرجة مظلمة إلا من ضوء خافت ينبعث من مشعل أحد الحراس حين يذهب لتعذيب مسجون أو إعدامه .. وفى حجرات التعذيب ترى السلاسل وعروسة الجلد – وكل ما يشيب له الولدان .

أجل .. كان النظام فى الأندلس قويا .. وكانت دولة العسكر التى ابتناها المنصور قادرة , وقد حافظ عليها عبد الملك – المقتول فى ساحة العرض – لكن مع حكم " شنجول " اختلف كل شىء .. تراجعت الملامح " الزاهرة " وحل الجحيم " المطبق " ..!! .

- 1 -

قـرطبـة

يا زمان الوصل فى الأنـدلــس
لــم يـكـن وصـــلـك إلا حـلـما
فـى الكرى أو خلسة المختلس

لسان الدين بن الخطيب

(1)

جلس الحاجب على عرشه فى الزاهرة يستقبل وفود المهنئين بوصوله إلى المنصب .. فى قاعة الحكم يقف الوزراء والمشايخ ورؤساء الطوائف والأعيان . وقد داهمهم " شنجول " بعزل كل رجالات الدولة السابقين من الصالحين وتعيين أصدقاءه من الفاسقين .

- **القائد جعفر** : الملقب بـ " الحديدى " .. وهو المتهم الأول بدس السم إلى الحاجب السابق عبد الملك تمهيدا لأبى المطرف . كان من خاصة عبد الملك ورجله بين القوات , عينه شنجول قائدا عاما للجيش مكافأة له . ونسى أن من يخون مرة يخون مرات .. ! .

- **مهران الصقلبى** : الحارس الشخصى لشنجول صار رئيسا للشرطة , لكنه ظل يرافق الحاجب فى جلساته , وظل يتولى متابعة أعمال الحراسة الشخصية , كما أسند إليه منصب " كبير البصاصين " - أى مدير المخابرات .. ديوان الشرطة فى الزاهرة , أما ديوان كبير البصاصين فهو تحت أرض معتقل " المطبق ! " .. ولذا كان مهران يقسم وقته بين الزاهرة والمطبق .. انه شرس لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا . متوسط الطول لكن مهابته توحى إليك بأن الرجل عملاق . له عينان هادئتان وابتسامة صافية تشع عذوبة وكلها ملامح تدارى شرا لا حد له ومكرا مقيم .

- **الفتى فائق** : أصبح ناظرا للحسبة الشريفة .. يشرف على ديوان المالية والتجارة , يفرض الضرائب ويراقب الأسواق والجباية .. رجل ناعم ديبلوماسى . حزق الحوار . يميل إلى السمنة مع ملاحة الوجه . كان صديقا قديما للحاجب لكنه شاذ جنسيا . كثيرا ما أرتاب الناس فى العلاقة بينهما . وعندما تولى الحسبة صار مسئولا عن توزيع الاحتكارات فى الدولة على رجال شنجول وأصدقاءه مما أدى أن يزداد الغنى غنى والفقير فقرا .. والغريب أن هذا الشاذ كانت تتبعه إدارة الأمر بالمعروف والنهى على المنكر ! .

- **كهرمانة** : رئيسة الحرملك . تتفانى فى جعل سيدها دائم السعادة .. تختار له الجوارى الجميلات وتشرف على كل شىء يخص هؤلاء الحسناوات , بدءا من شراء الجارية مرورا بتعليمها وتهييئها إلى أن ينتهى بها المطاف داخل مخدع الحاجب شنجول .. أيضا تشرف على مجالس السمر وأنواع الخمر , بل تتذوق الطعام قبل الحاجب لئلا يكون مسموما .. لكن كهرمانة لم تقف عند حدود الحريم أو اختيار الخمر والأطعمة , بل كانت صاحبة نفوذ وسطوة داخل القصر وخارجه . تتدخل فى أعمال السياسة وتستطيع بالإيعاز أن ترفع وغد إلى مراتب المسئولية أو تقتل مسئول فى ظروف غامضة . . **وكم من كلام فى مجلس أنس رفع وخفض** .

وبطبيعة المصالح غزلت المطامع صداقات وطيدة بين هؤلاء الأربعة . وأصبح كل واحد منهم يرأس شبكة اخطبوطية من الرجال والاستثمارات والاحتكارات . يوكلون تجار لممارسة مصالحهم لكنهم يختفون وراء الستار , وهم أيضا يقاسمون الناس فى أرزاقهم إذ يتثنى على كل صاحب وكالة أن يدفع لهم مبلغ كبير من المال حتى يؤمنون أعماله وإلا اعتقلوه واحرقوا متجره .

واتفق الأربعة أن يحجبون مولاهم الحاجب عن رعيته ! . فإن رئيس الشرطة وكبير البصاصين لا ينقل إليه إلا الأخبار السارة ودعاء الناس له ولعهده الكريم , أما المحتسب فكثيرا ما زيف فى كشوفات الوارد ووضع مبالغ وهمية تنم عن امتلاء خزينة الدولة . أما رئيسة الحرملك فإن طبيعة عملها سهلت وسيلتها فى جعل شنجول فى حالة من الإنعزال التام عن ما يدور خارج قصره .

لكننا نلاحظ أن جعفر الحديدى كان يعتقد فى نفسه أنه أقوى رجال النظام . فهو قاتل الحاجب السابق , دس له السم لكى يموت عبد الملك موتا بطيئا فى شكل ذبحة صدرية هاجمته فى العرض العسكرى لقواته المسلحة ووقع صريعا بين جنوده .. وكذلك يرى جعفر أن النظام كله مرهون بإرادة الجيش الذى تحت إمرته . ومثلما تحول فى عهد شنجول من مجرد قائد فى الجيش إلى قائد عليه . فإنه الآن يطمح إلى منصب الحجابة نفسه . وظل يتحين الفرصة للإطاحة بالعامريين .

# # #

كانت السيدة " الذلفاء " والدة الحاجب السابق " عبد الملك " تجلس مع معارضى " شنجول " فى احدى الغرفات الواسعة لقصر العقاب , حين فاجأت الحضور ورفعت الستار فدخل الإجتماع " جعفر الحديدى " قائد الجيش .

- **الذلفاء** : اليوم أكتسبت دعوتنا قائد قدير .. انه جعفر الحديدى .. ! .

الذهول يحيط بالمكان ..

- **الذلفاء** : كما تعلمون يا سادة فإن شنجول كان يكره ابنى عبد الملك لأن أمه هى درتى . ولأن المنصور رحمه الله قدم عبد الملك فى ولاية العهد . وكانت النتيجة أن يقتل شجنول أخيه – ابنى عبد الملك – وقد أثبتت الأيام براءة القائد جعفر من تهمة قتل حاجبكم الراحل .

كانت الذلفاء تعلم أن مؤامرة قتل ابنها تمت تحت سمع وبصر جعفر , لكنها لم تستطع معاداته فى هذه المرحلة , إذ كان هدفها الأول هو الثأر لابنها من المحرض الأكبر " شنجول " . ولم تتمالك نفسها من الفرحة حين جاءها جعفر الحديدى يعرض عليها خدماته وخيانته لسيده الجديد . . ومن الغريب أن جعفر فاجأها بخبر خطير ألا وهو معرفة رئيس الشرطة مهران الصقلبى بأمر تنظيمها لقلب نظام الحكم , وقد صدر بالفعل أمرا من مهران بالقبض عليها . ولكن جعفر مارس ضغوطه على مهران لإيقاف ذلك الأمر .

يضم اجتماع المعارضة عدد من رجال البيت الأموى الذين استولى العامريون على أحقيتهم فى الحكم . وعدد من التجار الذين ضاقوا ذرعا بنظام الضرائب والجباية والمكوس المفروضة عليهم لنهب ثمار عرقهم . وعدد آخر من مشايخ الطوائف مثل طائفة السقايين والحدادين وشباب فدائى من سوق السلاح . . وكلهم يحبون السيدة الذلفاء ويرون أنها أطيب زوجات المنصور الراحل , وطالما ناشدته بألا يورط أولاده فى أمور الحكم وأن يتركه

لأهله , لكن المنصور أبو عامر رفض ودارت الأمور إلى ما كانت عليه حين ولى عهده إلى ولديه عبد الملك وشنجول .

لكننا نلاحظ أن الطيبة النقية للسيدة الذلفاء تحولت بعد مقتل ابنها وطلبها للثأر إلى قدر كبير من الشر يتناسب مع طبيعة مؤامرات القصور .

- **جعفر** : أيها السادة .. إن منصب الحجابة لهو منصب عظيم , وقد اتفق الأولين أن يتولاه أكثر الرجال القادرين , وكان من الطبيعى إذا مات الرئيس الحاجب أن يتولى قائد الجيش منصب هذه الرئاسة .. ولكن المنصور أبى عامر عطل هذه السنة حين عهد لولديه بولاية العهد .. ولعلكم علمتم بالكارثة التى حدثت , فقد استخرج شنجول فتوى من شيخ الإسلام " أحمد بن برد " بولاية العهد إلى ابنه عبد العزيز . وكان هذا التدبير للتوريث ليس ببعيدا عن الجارية " كهرمانة " تلك الحية الرقطاء . . إن الجيش وأنا لن نسكت على " التوريث " . إما أن تكون لى الحجابة أو تحرق الدولة ولتذهب إلى الجحيم .

يهتف الجميع ..

إلى الجحيم يا شنجول .. إلى الجحيم يا شنجول

- **الخادم بشر** (موجها كلامه لجعفر) : اننى شرفت بخدمة السيدة " الذلفاء " لمدة عشر سنوات , وقد عرفت عنها حبها للخلافة الأموية التى عطلها العامريون , وقد اتفقنا فى الإجتماع السابق على دعوة البيت الأموى إلى الحكم . وبذلك نضرب الدولة العسكرية العامرية بالخلافة الدينية .

- **الذلفاء** : وحين يستقر الأمر للخلافة تترقى أنت إلى منصب الحجابة أيها القائد العظيم .

- **جعفر** : أتولى الحجابة مع احتفاظى بقيادة الجيش .

- **الذلفاء** : لا نعارضك فى ذلك أيها الحاجب المقبل ورئيس الوزراء المرتقب .

- **جعفر** : ولكن من أخترتم لمنصب الخليفة .. فأبناء الأمويين كثر .. !! .

- **الذلفاء** (مالت على جعفر هامسة) : سوف أقول لك على أسم الخليفة لاحقا .

.....
.....

انتهى الإجتماع وخرج جعفر ومعه الذلفاء إلى ممر من الممرات السرية لقصر العقاب فى طريق خروجهما من القصر , وفى الممر سألها جعفر عن الشخص المرشح لنيل منصب الخليفة ..

- **الذلفاء** : انه محمد بن عبد الجبار من سلالة الأمويين .

- **جعفر** (مذهولا) : معقول ! .. كيف ذاك ؟ .. انه على شاكلة الحاجب شنجول .. نفس الخلاعة والفجر والإستخفاف بأرواح الناس ومصالح الرعية .. بل انه ضعيف متردد .. سهل الإنقياد .

- **الذلفاء** : ولذلك اخترناه .. سوف نقوم بتحسين صورته أمام الناس .. ان شعبنا عاطفى بطبيعته .. يحب دينه وينساق للمتحدثين بقال الله وقال الرسول- وإذا صنعنا خليفة متدين فى مظهره . ضعيف فى جوهره .. آن لنا أن نسيطر من خلاله على الدولة والدين معاا . . ان محمد بن عبد الجبار هو كنز لا يفنى " رجل من بيت الخلافة الغابرة ويطلب الخلافة لنفسه . وهو لا يستطيع أن يقوم بالأمر بمفرده لضعفه وقلة حيلته وتبلد ذهنه . ولذا فهو يجد وسيلته معنا ونجد فيه غايتنا .

- **جعفر** : وكيف تسيطرون على الدين فى أذهان الناس وتقنعوهم بأحقية هذا الأفاق ؟ .

- **الذلفاء** : ما أكثر " المستشيخيين " فى بلادنا . وكل منهم يريد أن يبيع فتواه لقاء كيس من الدنانير . لا تنسى أن الفقر عض الجميع . . كل ما نريده منك هو الاستعداد الدائم لساعة الصفر حتى تجهز لإنقلاب الجيش على الرئيس الحاجب .

- **جعفر** : انقلاب الجيش هو وسيلة غير مأمونة , فالأمر ليس بالسهولة التى تتوقعون .. فالجند العامريون يخترقون القوات وهم يدينون بالولاء لشنجول إخلاصا لأبوه المنصور بن أبى عامر ... وأيضا يجب ألا ننسى عيون كبير البصاصين " مهران الصقلبى " المنبثة بين الوحدات .. وإذا كنت أقنعته أكثر من مرة بألا يتقبض على أعضاء تنظيمك حتى يجد المعارضون منفذا لتنفيس البخار المضغوط , فإنه من المستحيل أن انجح فى اقناعه بغض الطرف عن مؤامرة فى الجيش .

(2)

- "" الضبع .. أحذروا الضبع .. سوف يأكل الأعراض .. ينتهك الحرمات .. يبتلع الأولاد .. الضبع قادم .. الضبع قاااااادم ""

هكذا يصيح **" رجب المجذوب "** فى حوارى قرطبة .. كان عالما جليلا أنتقد ديكتاتورية المنصور بن أبى عامر فأدخله السجن , وفى معتقل المطبق رأى الويل وسواد الليل حتى خف عقله وغلبه الخرف .. عشرون عاما فى سجن المنصور حتى أطلق سراحه عبد الملك بن المنصور . ومن يومها يمشى فى الشوارع فاقد الذاكرة , يعطف عليه الناس بالأكل والكسوة المهلهلة . وسموه " رجب المجذوب " . .

لكن رجب كثيرا ما كان يصيح بكلام له معان لا تخلو من الحكمة , بل بدا فى كثير من الأحيان يستشرف آفاق المستقبل . . بعض النساء كن يتبركن به . يذهبن إليه بأطفالهن لكى

يدعو لهم بالشفاء , فيضع يده فوق رأس الطفل ويدعو ثم ترحل الأم ويشفى الولد – بأمر الله – ولكنها تعتقد أن كرمات رجب هى الشافية .

- **الشيخ ريحان** (العطار) : تعالى يا رجب . تعالى يا بنى . . ضبع إيه اللى بتتكلم عنه ؟ .

- **عم عدوى** (صديق الشيخ ريحان) : جرى ايه يا ريحان . انت حتعمل حعقلك بعقلوا .

- **رجب المجذوب** : الضبع .. حيخلى ويلكوا ويل . ويوريكوا سواد الليل .

- **الشيخ ريحان** : لو البلد دى فيها إمام عادل أو خليفة صالح , مكنش حكمها شنجول الفاسق , ومكنش واحد ذى رجب يمشى يكلم نفسه بالشكل دة .

- **عم عدوى** (هامسا) : اخفض صوتك يا ريحان . انت نسيت نفسك ولا ايه . عايز عيون مهران يحطوك فى " المطبق " . . وبعدين احنا فين وزمن الخلافة فين ؟ .. ما راحت وراحت أيامها .. هو بقى فى خليفة دلوقتى !!! ؟ .

- **رجب المجذوب** : جاااااااااى .. الضبع جاى .. انا شايفواا بعينى جاااى ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- **الشيخ ريحان** : أهلا أهلا وسهلا يا خطوة عزيزة . . أتفضل يا أمير محمد .

- **عم عدوى** : أهلا يا أمير محمد . بقالك مدة مش بتييجى السوق .

انه الأمير **محمد بن عبد الجبار** من سلالة الأمويين .. أمل الذلفاء المنشود .. وهو أمل قيادة جماعته من الأمويين .. بل انه أمل شعب الأندلس أيضا .. أمل المضطهدين والمساكين . . ينزل الأسواق . يتمشى بين الناس . كريم اليد والبذل . يدفع بسخاء حين يشترى شيئا ولا يفاصل فى الأثمان . لطيف المعشر . خفيف الروح والدم .

طويل القامة . عربى الملامح . له عيون تنطق بما يريد أن يوحى للناس . بل أحيانا يتباكى لمزيد من الإقناع وإدعاء الحسرة على حال الغلابة .. خفيف اللحية لكنه يمشطها بعناية ويساوى أطرافها بحرص كمن لا يريد لشعيراتها أن تخرج عن طوعه ! .

كثيرا ما تحدث إلى الناس فى أمور السياسة , يقول لهم أن الأمل فى الأمويين الذين لو حكموا سوف يملأون الأرض عدلا .. الناس ينجذبون إلى كلامه عن الدين وعودة الخلافة والحلم الموعود . انه ساحر طلق اللسان .. يحدثهم عن مشاكلهم . الناس دائما يحبون من يحدثهم عن مشاكلهم . . قبض عليه مهران الصقلبى ذات مرة وأشرف بنفسه على ضربه وإهانته ثم أطلق سراحه إكراما لجماعته وأسرته من الأمويين بعد أن أخذ عليه تعهدا بألا يتكلم فى السياسة ولا يؤم الناس فى المساجد .

هدده مهران قائلا ..

- أوعى تكون فاهم يا محمد أن احنا نايميين أو مش عارفين انت بتعمل ايه .. زجاجات الخمر المعتق التى تصبها فى بطنك كل ليلة .. الفاجرات والغلمان اللذين يملأون مخدعك .. المرأة التى أغتصبتها ثم أرسلت من يقتلوها حين هددت بفضح أمرك عند قاضى القضاة .. انك شخصية مزدوجة حقيرة تنام على الفحش وتصحو على الطهر , ولكن طهرك أسوأ من فحشك لأنك كذاااااب . تخدع الناس وتدعى الصلاح والنقاء . تحدثهم فى السيرة والقرآن وهما منك براء . . أفعل ما شئت بنفسك أو بالناس , لكن حذار أن تتحدث فى السياسة وإلا وضعتك فى بئر الموت بالمطبق حتى تخنقك المياه . . وأعلم أن عيوننا منبثة فى مخدعك وبين حرمك , فلسنا مثل البسطاء الذين تكذب عليهم كل يوم .

- **الشيخ ريحان** : انت نسيتنا ولا ايه يا أمير محمد . بقالك كثير مش بتيجى السوق , ولا بتؤمنا فى الصلاة وتخطب بينا , ولا بتشترى منا أى حاجة .

- **عم عدوى** : يمكن مش عايز ينفعنا . أو يمكن نسينا .

- **محمد بن عبد الجبار** : أنا مش ممكن انساكوا .. لكن كنت مريض فى الفترة الأخيرة .

- **الشيخ ريحان** : وايه الاحمرار اللى فى وشك دة . دة أنت ذى ما تكون مضروب !! .

- **محمد بن عبد الجبار** : لا أبداا .. أصلى وقعت لما كنت مريض . لم تتحملنى قداماى فكفيت على وجهى .

- **عم عدوى** : لا ألف سلامة عليك .

- **الشيخ ريحان** : كنا بنقول لو يحكم البلد راجل صالح ذيك . كان خلصنا من شنجول و مهران واللى ذيهم ...

- **محمد بن عبد الجبار** (مرتعدا – يتلفت حوله) : أنا حقوم بقى يا جماعة . سلام عليكم ...

- **الشيخ ريحان** : هو ماله قام يجرى كدة ليه . الأمير محمد متغير شوية ؟.

- **عم عدوى** : اظاهر خد علقة فى " المطبق " .. منا بقولك خلينا احنا فى حالنا .. طب دة راجل وراااه جماعة الأمويين . يعنى لو اتسجن ممكن يطلعوه بنفوذهم وبفلوسهم . لكن احنا مين وراااانا . لو اتسجنا العيال حتتيتم .

(3)

استقر رأى الذلفاء وجعفر الحديدى أن فكرة الإنقلاب ضد نظام شنجول هى فكرة غير مأمونة , وأن البديل لها هو حركة شعبية يقابلها حياد من قبل الجيش .. سوف يتولى تنظيم الذلفاء الاتصال بجماعة الأمويين و رؤساء الطوائف والتجار الساخطين والغلابة والمساكين .. أما جعفر فإن مهمته الأساسية هى سحب القوات المسلحة الرابضة فى العاصمة قرطبة إلى آخر حدود الأندلس . أما رجال الشرطة من أعوان مهران الصقلبى فإنهم لن يستطيعوا مواجهة ثورة شعبية عارمة بمفردهم دون تدخل من الجيش .

تم الإتفاق أن يذهب بشر الخادم إلى الملك سانشو – ملك نبارة – برسالة موقعة من جعفر الحديدى والذلفاء معا , مفداها أن يعقد حلفا مع ملوك أوروبا الواقعة ممالكهم شمال الأندلس – قشتالة وليون وجيليقية – وأن يغيروا على حدود البلاد إغارات خاطفة للنهب والسلب ثم يعودون إلى بلادهم محملين بخيرات ديار الإسلام .

وكان اختيار " الخادم بشر " هو اختيار مقصودا لأنه يعد رسولا رسميا بين الذلفاء والملك سانشو منذ سنوات , وبالتالى فإن الملك يثق فى أى رسالة يحملها " الخادم بشر " أيا ما كان الموقع عليها .

فى حضرة سانشو يقف الخادم بشر بعد أن قرأ الملك الرسالة ..

- **الملك سانشو** : إن جعفر الحديدى محارب صنديد . وبيننا وبين بلادكم هدنة منذ أيام الحاجب عبد الملك قدس الرب روحه . وقد يكون خرقنا للهدنة دافعا لأن ينكل بنا جعفر هازما قوات التحالف .

- **الخادم بشر** : يا مولاى . كما بينت سيدتى الذلفاء لجلالتكم فى رسالتها . فإن جعفر لن يشتبك معكم فى معارك حقيقية , فإن الغرض فقط هو سحب الجيش الأندلسى إلى حدود البلاد لإخلاء العواصم , وحين تصلكم فرقه سوف ينسحب جعفر مرة أخرى إلى الداخل بحجة إخماد الثورة . وبعد أن تكون الثورة قد أسقطت النظام فعلا .

- **سانشو** : ولماذا تصرون على تحالف بين ممالكنا الأوروبية . أليست مملكتى نبارة كافية لهذا الغرض ؟ .

- **الخادم بشر** : كلا يا مولاى . ان مملكتكم إذا حشدت كل قواتها , فإن جيش الأندلس لن يخرج إلا فرقة واحدة لملاقتها . أما إذا تحالفت ثلاث أو أربع ممالك , فإن الأمر سوف يحتم على الحاجب شنجول أن يأمر قائده جعفر بالحشد الشامل وإخلاء قرطبة – وهو المطلوب .

- **سانشو** : لكن أبلغ الذلفاء . اننا إذا نجحت ثورتكم لن نكتفى بإستباحة حدودكم وأخذ ما فيها من أموال وضياع . بل سوف نستوطن فى أجزاء منها .. أعذرنى يا رسول أصدقائى , **فإن الثورة إذا كثر صناعها أقتطع كل منهم قطعة** . ونحن بذلك نكون قد شاركناكم ثورتكم .

(4)

يجتمع الرئيس الحاجب " شنجول " بوزراءه وقادته بعد أن أبلغه جعفر بضرورة حشد القوات على الحدود .

- **شنجول** : هل جننت يا جعفر . أتريد أن أخلى العواصم من الجيش وأقذف بقواتى إلى الحدود .. ؟

- **جعفر** : يا مولاى . لو كنا نحارب دولة واحدة لأكتفيت بجزء من القوات . لكننا أمام تحالف يضم أربع دول .. نبارة وليون وجيليقية وقشتالة وقد تشاركهم أرجون أيضا .. ويرأسهم سانشو وهو رجل خبير وليس بالغر . . كيف نفعل مع هؤلاء البرابرة الذين أحتلوا بلادنا وأغاروا على السكان وانتهبوا الأموال وأغتصبوا النساء ؟ .. ثم انهم جال بإعتقادهم ضعف مولاى الحاجب لانك لم تبادر بحربهم فور توليكم كما كان يفعل المنصور وعبد الملك رحمهما الله , ولذا ينبغى أن نريهم صلابة الحكم فى عهدكم السعيد .

- **شنجول** : والداخل ماذا عن داخل البلاد ؟.

- **جعفر** : وماذا يحتاج داخل البلاد أكثر من الشرطة لحفظ الأمن .

- **مهران الصقلبى** : إذا قرر مولاى الحاجب إرسال جيشه الباسل إلى الشمال , فإن الأمن مستقر تماما فى قرطبة .

- **فائق ناظر الحسبة** : الخزانة لا تكفى يا مولاى لتلك الحرب الشاملة التى يطلبها القائد جعفر .

- **شنجول** (مستعجبا) : لا تكفى ؟؟ !! .. ألم ترسل لى فى تقاريرك أن الأموال وفيرة والخزانة ممتلئة عن آخرها .

- **فائق** : أجل يا مولاى , ولم أكذبك . ولكن هذا فى وقت السلم . أما فى زمن الحرب , وبالخصوص إذا كانت التعبئة عامة فإن الأمر مختلف . ولا أحسب أن الخزانة تكفى لمعارك لا يعلم إلا الله متى تكون نهايتها .

دخلت فجأة كهرمانة إلى اجتماع القادة وقالت بحزم ..

- يا سادة . لا تزعجون مولاكم أكثر من ذلك . إنه يسهر طول الليل على راحة الرعية , فأمنحوه بعض الراحة .

- **جعفر** : لا أظن أن سيدى الحاجب سوف يرتاح هذه الأيام , فإن راحة الرعية التى تتحدثين عنها تقتضى أن يذهب معى على رأس الجيش الخارج لمحاربة الغزاة .

- **شنجول** (مفزوعا) : ماذا ؟؟ .. هل تطلب منى أن أذهب إلى الحتف بأقدامى .. إلى مرمى السهام وصليل السيوف .

- **كهرمانة :** القائد جعفر يهزى يا مولاى .

- **جعفر :** أنا لا أهذى بل أعنى ما أقول . الناس يتحدثون عن الحاجب الذى لم يترك قصره بالزاهرة منذ أن تولى . والممالك فى الشمال تحشد قواتها لملاقاة الحاجب الذى لا يغادر سراياته إلا للصيد أو النزهة . . والآن فإن الرعية والفرنجة على السواء ظنوا فى سيدى الحاجب الخوف والفزع والضعف . وسوف يكون من المناسب جدا أن يكسر هذه السمعة المزرية وأن يخرج معى لقتال الغزاة .

- **مهران :** وماذا إذا أصابه سهما طائشا أو ضربة حربة . هل سوف نسعد برضاء الرعية . فاليمت الشعب وليعش مولاى شنجول .

- **جعفر :** إن مولاك ومولاى سوف يخرج معى خروجا ظاهرى فقط . و لن يدخل أى معارك . وسوف يبقى فى حراسة الجند العامريين بعيدا عن رحى الوقائع . ولكن مجرد خروجه على رأس الجيش سوف يكسب عهده سمعته الحربية التى يحتاجها لتوطين مكانته فى عيون الداخل والخارج . . وأعده أن الموضوع كله لن يكون أكثر من رحلة صيد كالتى أعتاد الخروج فيها . . بل إنها سوف تكون نزهة حربية له مكاسب مجدها ومغانمها وعلى أنا مغارمها .

- **شنجول :** إذا فالتجهز لنا كهرمانة عدة الصيد النزهة . زجاجات النبيذ المعتق و بنات حبشيات تشع بشرتهن السوداء برودة وصقيع إذا أكفهرت الأجواء .. وجوارى بيض روميات تدفىء أحضانهن فى الليل إذا حل الزمهارير .. فمن يدرينا قد نغيب عن قرطبة بعض عام أو عام .

- **جعفر :** لن يصل الأمر إلى كل تلك المدة يا مولاى .

- **فائق :** والمال يا مولاى . أكرر أن الخزانة لا تكفى لنفقات تلك الحرب العظمى .

- **شنجول :** عليك بزيادة الضرائب يا فائق .

- **كهرمانة :** حكمة مولاى الحاجب لا تضاهيها حكمة . لقد حل لكم مشكلة المال بكلمة واحدة .

- **مهران :** سوف أبعث – كالعادة – مع ملتزمين الحسبة عدد من أقوياء رجالى , ليجلدوا من يمتنع عن الدفع .

# # #

خرج ملتزمين الحسبة كالذئاب المنطلقة من حر البادية إلى الواحة الممرعة يحيط بهم فرسان مهران لحمايتهم وجلد من يمتنع عن الدفع .. يسحلون الفلاحين . ينهبون المتاجر . يقيمون عرائس الجلد فى الأسواق . يأخذون الأطفال أسرى والشباب رهائن حتى يتم سداد الزيارة الضريبية من ذويهم وأهليهم . كانت هذه الحملة الشرسة قد عبئت النفوس ببخار الغضب أكثر من ذى قبل , فقد زاد الأمر عن كل حد .

وبالفعل حدثت بعض المناوشات بين الأهالى وفرسان مهران أثبت فيها الأهالى قدرتهم على الضرب والدحر والكر والفر , لولا أن رجال رئيس الشرطة كانوا مسلحين والجند العامريون الذين يخشاهم الجميع كانوا لا يزالون فى البلاد .

لم يمر وقت طويل حتى شهدت قرطبة خروج الجيش يتقدمه الحاجب شنجول على حصانه الأبيض ووراءه القائد جعفر ومن خلفهما قادة الفرق والألوية . الناس المقهورين يهللون لهم بأيديهم ويهتفون بحياة الحاجب ..

- يعيش أبو المطرف شنجول .. يعيش أبو المطرف شنجول .

وخلف الجماهير المحتشدة لوداع الركب يقف جنود مهران المسلحين . فقد جمعوهم قسرا من الحوارى لوداع الحاجب والدعاء له ... الضحك على الشفايف والقلب مطوى على الجراح .

- 2 -

الضبع يمتطى الثورة

لقد نطق البشير بما ابتهجنا له .. آه لو كان يصدقنا البشير

البحترى

(1)

انفصل شنجول بحرسه العامريون عند بلدة " مدريد " ليمارس هوايته فى العربدة والصيد والقنص . فقد وعده جعفر أن يخرج مع الجيش خروجا ظاهريا لا يكبده حومة الوغى .. واستأنف جعفر الحديدى زحفه إلى الشمال فاشتبك مع جنود الملك سانشو عند وادى الحجارة وتحت سفوح جبال الشارات وتمكن أن ينتزع نصرا سريعا , ثم عمل على نشر قواته على حدود قشتالة وليون وجيليقية بالمحازاة مع وادى رامة .

فى هذه الأثناء بدا أن الحاجب شنجول منعزلا تماما عن سير المعارك بقيادة جعفر وعن لهيب الثورة بقيادة " تنظيم الذلفاء " .. رؤساء الطوائف فى التنظيم حثوا رجالهم على الإضراب العام . أغلق التجار متاجرهم بناءا على أوامر شاهبندر التجار – من أتباع الذلفاء – واستغل الجميع فرصة خلو قرطبة من الجيش وضباطه .

نقباء السيدة الذلفاء يخطبون فى تجمعات الناس ...

يقول أحدهم ..

- ... كان نصيبكم من رجال شنجول وعماله فوق الذى تطيقون . تعملون فى أراضيكم العام كله . فإذا أينعت الغلة وحان قطافها . جاءكم الدهاقين فحازوا جلها . ثم لم يتركوا لكم ما يقيم أودكم . هذه الأراضى ورثتموها عن أجدادكم الفاتحين وليس عليها فى شرع الله إلا العشر . أما الخراج الذى فرض عليكم فلم يأت فى كتاب أو سنة . فما الذى يبقى لكم بعد ذهاب نصف الغلة للدهاقين وعمال شنجول وبنو عامر . والله قد صارت الأرض كعدمها .

ويحاول زعيم آخر أن يدغدغ مشاعر العبيد ويمنيهم بحريتهم إن انضوا للثورة ..

- ... وقد افتى إمامنا رضى الله عنه بأن العبيد الذين ينحازون إلى دعوتنا يخرجون من ذمة سادتهم إلى ذمة الإمام . فهو وليهم ويصيرون بذلك أحرارا .

ويقول ثالث ..

ولم يترك شنجول مفسدة ولا ظلما إلا اقترفه , فاستبد بالأمر دون أهله . وسخر الحكم لأغراضه . وهكذا ظهر الفساد فى البر والبحر وعم البلاء . وهذه علامات ظهور **المهدى** – وانه والله إمامنا .

.....

نزلت الشرطة يقودها مهران بنفسه إلى الشوارع ليجد الناس وقد أشتعلوا حماسة . يضربون عسكره ويوقعوهم من فوق الخيول . كل مواطن يحمل ما تثنى له من أدوات ليدافع بها عن نفسه . منهم من يحمل سكينا أو هون أو خنجر أو عصا من حديد . بدأت قوات مهران تقذف الثوار بكرات اللهب .. أحترقت الوكالات .. صار السوق أشبه بجهنم الحمرا .. كان

رئيس الشرطة يهاجم الثوار بمنتهى القسوة وهو يضحك من فوق فرسه ضحكة الواثق من قدرته على " الرعاع ! " .

تعالت ضحكات مهران . يقفز ويتمايل بجسده الرشيق فوق سرج حصانه فيوحى بمحارب فذ وقاتل خبير . يضرب بسيفه يمينا ويسارا فيطيع برؤوس الرجال مما يشجع رجاله على مزيد من التنكيل .. كان رئيس الشرطة على وشك أن يطوق الثورة لولا قيام القائد " جؤذر " – من موالى بنى أمية واتباعهم – بمهاجمة قصر الحجابة بـ " الزاهرة " .. سحب مهران قواته من الأسواق والقرى ليسرع إلى الزاهرة لحماية قصور الحاجب فيها .

أشتبك مع فرسان جؤذر عند أسوار الزاهرة ليجد العامة وقد زحفوا كالجراد عليها , فوقع مهران فى كماشة بين " جؤذر " وجنوده من الأمام والعامة من الخلف .

كهرمانة تصرخ وتعطى أوامرها إلى الجوارى والفتيات بالاختباء فى الدهليز السرى . ناظر الحسبة فائق يفتح خزينة ديوانه ويضع ما بها من أموال فى " زكيبة " كبيرة , ثم يأمر الخدم بالذهاب بها إلى الدهليز السرى . كل مقتنيات القصر النفيسة والأوراق الهامة وجدت طريقها إلى الدهليز .

بعدما تبين لمهران أنه مهزوم لا محالة أمام أعداد من البشر تفوق قواته ولا ينقصها التسليح بعد انضمام الأمويين للثورة , بادر رئيس الشرطة بالهرب إلى ديوانه بالمطبق وخلفه عدد من جنوده .. بمجرد أن دخل المعتقل الرهيب حتى أعطى أوامره بفتح السجون وإطلاق المجرمين لترعى كالطاعون بين أهالى قرطبة .

جنود رئيس الشرطة يجمعون المساجين فى ساحة المعتقل الواسعة ليخطب فيهم مهران ..

- **مهران** : اليوم هو يوم حريتكم ونهاية عذابكم . سوف أطلق سراحكم جميعا على شرط أن تتوجهوا من فوركم إلى الزاهرة . تقتلون كل من تجدوه من العامة والمارقين . إن من يقتل منكم رجلا ويأتينى برأسه استبحت له أمواله ونساءه . وكلما كثر عدد الرؤوس بين أيديكم زادت مغانمكم .

العساكر تفتح أبواب المطبق الخشبية الضخمة . تصدر مفصالاتها صريرا عاليا مزعجا . ينطلق المجرمين إلى الزاهرة وضواحى قرطبة . يسرقون . ينهبون . يغتصبون .

بعض المعتقلين رفضوا الهرب ولم يفهموا ماذا يحدث لكن جنود رئيس الشرطة قتلوهم . انهم يقتلون كل سجين لم يهرب .. صعد مهران إلى أحد أبراج المطبق يحاول أن يشاهد ما يحدث على الأفق فى قرطبة . انه لا يرى عن البعد سوى دخان أسود كثيف وألسنة لهب تأكل البيوت .. بدت الزاهرة هادئة من بعيد . لكن الوضع من قريب كان مختلفا .

استطاع جؤذر الأموى أن يدخل مدينة الحجابة بخيوله واستبقه إليها العامة . ينهبون ويسرقون كل ما يصادفوه . أما مجرمين المعتقل الفارين , فإنهم حين شاهدوا الجنة الزاهرة أنشغلوا بالسرقة عن وظيفة " قطع الرؤوس " التى أرادها لهم مهران .

كان العامة مقهورين لسنوات طويلة وحين وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها قد أضحوا فى قصور شنجول فإن انتقامهم جاء على شكل سرقة , وكذلك المساجين التعساء كانت السرقة هى التعويض الوحيد عن أيام المطبق الرهيب . وبين العامة والمساجين أضحى صوت الثوار الحقيقيون والشرفاء الوطنيون صوتا خافتا .

لم يستمع أحد إلى صوت العقل الذى يقول بأن الأندلس هى ديار المسلمين ولابد من إعمارها وليس تخريبها . ان الظلم لا يورث إلا الظلم . و القهر لا يولد إلا قهرا . والتحرر من الديكتاتورية ينجب فوضى فى كثير من الأحيان . وتدمرت بعد ذلك مدينة الزاهرة العامرية حتى لم يبق لها أثرا جدير بالذكر بين مبانى الأندلس .

وإذا كان العامة قد انتهبوا الذهب والشمعدانات الفضة وستائر الحرير . فإن جؤذر كان يعرف تماما ما يريد . أنه يريد رجالات النظام السابق والأوراق . يريد كهرمانة وفائق وكل الوزراء الذين أختبئوا .

ترك جؤذر فى الزاهرة بعض الجند ثم أنطلق بالبعض الأكبر إلى المطبق ليجد بابه الضخم مفتوحا . وعساكر مهران تجلس على الأرض بعد أن ألقوا بسلاحم وسيوفهم إلى جوارهم .. يأكلون خوخ وبرقوق فى استهتار ولا مبالاة وكأنهم يستمتعون برحلة حول إحدى بحيرات الأندلس . . نزل جؤذر إلى ديوان مهران تحت الأرض بعد أن دله عليه أحد حراس السجن .

- **مهران** : مرحبا قائد بنو أمية .. انتظرتك طويلا .. أليس من الحكمة أن يستسلم المرء حين يدرك هلاكه ؟ .. لقد أمرت عساكرى أيضا بالإستسلام لك .. أووو نسيت أن أقدم لك بعض الخوخ .. تفضل أنه لذيذ جدااا .. مقطوف من شجرة خوخ هنا فى ساحة المطبق أمرت المساجين أن يزرعوها منذ أمد .. أليس من الواجب إكرام الضيف .. ؟ .

- **جؤذر** : لسنا ضيوفا يا مهران . اننا أصحاب الحق الشرعى فى خلافة الأندلس التى عطلتموها لصالح أسيادكم من العامريين العسكر .. أين كهرمانة وفائق وباقى الوزراء لقد فتشت الزاهرة لم اجدهم ؟ .

- **مهران** (يرد على سؤال جؤذر بسؤال) : ماذا ستفعلون بعد ذلك .. تريدون دول دينية ؟ .

- **جؤذر** (يعلو صوته ويسأل بحزم) : أين كهرمانة يا مهران ؟

يدخل أحد جنود جؤذر ويميل على أذنيه قائلا ..

- السيدة الذلفاء تطلبك من فورك .

- **جؤذر** (يأمر جنوده) : ضعوا رئيس الشرطة فى السجن حتى نفرغ له .

(2)

دخل جؤذر قصر العقاب دخول الفاتحين ليجد القاعة محتشدة بأطراف التنظيم وقادته – على رأسهم السيدة الذلفاء – فى هذه المرة لم يدخل أحدهم من الباب الخلفى أو يتنكر فى ذى " سقا " أو " خادمة " . فى هذه المرة كان الجميع يحتشد ليقرر مصير الأندلس .. وكان جؤذر هو نجم المجلس المنتصر .

- **الذلفاء** : جؤذر . أذهب على عجل لإحضار الأمير محمد من بيته قبل أن يصل نبأ الثورة إلى الأمير المستكفى فى طليطلة .

- **استأنفت الذلفاء** ..

كما تعلمون يا سادة – وبينكم أمراء بنى أمية – أن الأمير المستكفى هو أقوى رجال البيت الأموى لما يحتجن من مال ورجال . وهو لديه العقل الراجح والعمر الناضج . كنا قد وعدناه بأن يصير الأمر إليه إذا نجحت الثورة حتى لا يقلب علينا أتباعه أو يفضح أمرنا عند شنجول . وكان الرجل لا يدخر وسعا فى مساعدتنا بالمال على أمل أن نعهد إليه بالخلافة . لكن مشكلة الأمير المستكفى أنه أقوى مما ينبغى وأغنى مما يلزم , فإذا مكناه منا كان قادرا على ابتلاعنا قبل أن يبتلع خصومه . . ولذا استقر رأينا على الأمير محمد فهو صغير السن . لين العريكة ... وأنا الآن أدعوكم إلى أخذ البيعة لأمير المؤمنين محمد بن عبد الجبار . ثم إعادة البيعة حين حضوره الكريم . والله المستعان .

.....
.....

يدخل جؤذر – وبعض عساكره – إلى الغرفة التى ينام بها الأمير محمد فى بيته الصغير على أطراف قرطبة .. وجده نائما على وجهه مخمورا .. ثيابه مبتلة بمزيج من عرق البلح وعرق الأمير ... ! .

كان جؤذر بملابسه العسكرية وحوله جنوده بالسيوف يبدو لسكرات النائم وكأنه آت لتنفيذ حكم بالإعدام ..

- **الأمير محمد** (يصحو مفزوعا) : من ؟؟ .. مهران ؟؟ .. لم أفعل شيئا .. لم أفعل شيئا ..

- **جؤذر** (يهم بتقبيل يد محمد) : مولاى أمير المؤمنين .. أنا خادمكم جؤذر ..

- **الأمير محمد** (لا يزال يهذى بخمرته) : ما هذه الملابس العسكرية ..أأرسلك مهران لقتلى ؟ .

- **جؤذر** : مهران فى السجن يا مولاى . لقد صرت سموكم خليفة الأندلس وأميرا للمؤمنين .

- **الأمير محمد** : أنا ؟؟ .. ماذا قلت ؟؟ ..

- **جؤذر** : قم فاغتسل يا أمير المؤمنين من آثار تلك الخمر . فمنذ اليوم سوف تنشتنى بخمر آخر .. خمر السلطة والسلطان الذى لا يحده حد .

أنطلق الأمير محمد بصحبة جؤذر إلى قصر العقاب . دخلوا من الباب الخلفى إلى حرملك القصر حيث كانت السيدة الذلفاء قد حضرت لمحمد الملابس الرسمية للخلافة وتولت بنفسها مساعدة الخدم والجوارى فى تجهيز الملابس على الأمير ووضعوا على رأسه عمامة كبيرة لا يرتديها إلا أمراء المؤمنون . وعلقوا على كتفه عباءة مطرزة بالقصب وموشاه بالنياشين وماء الذهب . سكبوا عليه زجاجات من عطور المسك .. وتمنطق الخليفة بخنجر شده حول وسطه ليضفى هيبة جديدة على الزى الرسمى . وأمسك بمسبحة قصيرة . وأرتدى خاتم الملك التاريخى الذى ورثه الخلفاء عن صقر قريش عبد الرحمن الداخل .

والآن حانت لحظة دخوله إلى القاعة الرسمية لقصر العقاب . صاح أحد الحراس ..

- أمير المؤمنين محمد المهدى بالله - أدام الله ملكه ورعاه ..

وقف الحضور من تنظيم الذلفاء .. تجار وأعيان ورؤساء طوائف ومشايخ قرى .. كل واحد من هؤلاء يطوى تحت إمرته مئات ممن شاركوا فى الثورة .. أيضا اشتمل الحضور على عدد من أمراء البيت الأموى وفرسانهم . . لم يجدوا غضاضة أن يعهدوا بالخلافة إلى الأمير محمد حتى يبعدوا السلطة عن الأمير المستكفى داهية العرب . . جلس الخليفة على عرشه بالعقاب وخلفه جؤذر والذلفاء . أشار إلى الذلفاء متساءلا بصوت خفيض ..

- من يكون محمد المهدى بالله الذى نادى الحارس بإسمه فور دخولى ؟؟ .. أليس اسمى محمد بن عبد الجبار .. ؟؟ .

- **الذلفاء** : يا أمير المؤمنين , لكل خليفة لقب " ملكى " وقد أخترنا لك لقب " المهدى " استبشارا بـ **" المهدى المنتظر "** .. وسوف تثبت لك الأيام مدى قوة هذا اللقب .

تقدم كل واحد من أعضاء تنظيم الذلفاء إلى العرش .. يركع ثم يقبل يد الخليفة ويضع جبينه عليها كناية على الرضا والخضوع .. ويردد قائلا ..

- " نبايع على السمع و الطاعة فى المنشط والمكره " .

كان محمد المهدى يرى تقبيل الناس ليده وإنحناءهم أمام عرشه لكنه لا يصدق ما يراه . بالأمس كان خائفا من مهران . طريدا لشنجول . يخشى نزول الأسواق . ضربه العساكر فى المطبق . يعانى الضيق المالى . والآن صارت الدنيا بين يديه .... ما أغرب الأقدار ! .

- **جؤذر** (صائحا) : والآن بعد أن بايعتم أمير المؤمنين , حان لنا أن نتوجه إلى مسجد قرطبة حتى يبايع الناس كافة على السمع والطاعة . وقد استبقنا الإمام أحمد بن برد شيخ الإسلام إلى هناك ..

.....
.....

المشهد مسجد قرطبة يحيط به عساكر جؤذر شاهرى السيوف .. يخطب إمام المسجد الشيخ أحمد بن برد ...

" يا أمة الإسلام قد انتصر الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا . لقد ثار شبابكم ضد الفاسق شنجول وعهدت الأمة بولايتها إلى الصالح التقى النقى أمير المؤمنين محمد المهدى بالله - أعزه الله ..

كثيرا ما رأيتموه هنا وهو يتلوا القرآن فى أحد أركان المسجد حتى كنتم تسموه حمامة المسجد .. وكثيرا ما حدثكم عن مشاكلكم وأمكم فى الصلاة وخطب فيكم .. وقد حقت كلمة الله فهو الآن خليفة المسلمين يسير بنا على سنة نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم " .

يكبر العامة فى المسجد ويهللون .. ثم يصعد محمد المهدى إلى المنبر ليخطب خطبة المبايعة مستلهما بعض كلماتها من خطبة أبى بكر الصديق ...

"" أيها الناس . قد وليت عليكم ولست بخيركم . إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . أعينونى ما أقمت العدل والحق فيكم . أعينونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .. يا أهل الأندلس .. أهلى وأصحابى .. لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل .. ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء .. وقد شاعت الفاحشة فى عهد ذلك الدعى الدجال شنجول فرمانا الله بغضبه حين اجتاحت حدودنا ممالك الفرنجة . وإنى أعدكم أن أطهر البلاد من دنس الكفرة وأن أثأر لشهداءنا قتلى الفرنجة . وأن أثأر لشهداءنا قتلى الثورة . وأن أخذ لكم حقكم من ظلم مهران وفائق .. فالضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له . والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه "" .

يهتف القائد جؤذر بأعلى صوت ..

- يا محمد يا مهدى .. يا محمد يا مهدى ..
- سبحان الله .. ولله الحمد ...

تهتف الرعية بهتاف جؤذر

- يا محمد يا مهدى .. يا محمد يا مهدى ..
- سبحان الله .. ولله الحمد ...
- سبحان الله .. ولله الحمد ...

الشيخ أحمد بن برد .. ينحنى لمباعية أمير المؤمنين مقبلا يده , قائلا ..

- " نبايع على السمع والطاعة فى المنشط والمكره " . . ثم دعا العامة للمباعية ..

- هلموا إلى مبايعة **المهدى المنتظر** الذى سوف يملأ الأرض عدلا ويعيد الإسلام إلى سيرته الأولى ..

أقدمت الحشود على مبايعة أمير المؤمنين ثم حملوه على الأعناق إلى **مدينة الزهراء** " الخلافية " .. يهتفون .. مستبشرين .. انه الإمام الذى أزف أوانه وظهرت علاماته .

مدينة الزهراء هى مدينة الخلفاء , ابتناها عبد الرحمن الناصر لتكون مقرا لأمير المؤمنين . وقد جلس على العرش فى الزهراء الخليفة عبد الرحمن الناصر , ثم الحكم المستنصر , ثم هشام المؤيد .. ولكن العامريون عطلوا منصب الخلافة ونقلوا مقر الحكم من " **الزهراء** " إلى " **الزاهرة** " ... والآن يعود الحكم إلى الزهراء مرة أخرى فى خلافة " محمد المهدى " .

كان موكب الخليفة يشق طريقه بصعوبه بين جموع الناس .. والأتباع يحملون الرايات البيضاء " شعار الخلافة الأموية " .. وجنود من رجال جؤذر يدقون الطبول بين يدا أمير المؤمنين بإيقاعات مرتبة ....

(دوم) (دوم . دوم) (دوم) ... (دوم) (دوم . دوم) (دوم)

(3)

امتطى الخادم بشر جواده وذهب للقاء القائد جعفر الحديدى فى معسكره عند سفوح جبال الشارات على حدود الأندلس الشمالية ..

- **الخادم بشر** : سيدى الحاجب ..

- **جعفر** : الحاجب ؟ .. ألم تخلط فى الكلام ؟؟ .

- **الخادم بشر** : كلا يا سيدى لم أخلط , وإنما اهنئك بإنتصار الثورة ومبايعة الشعب لمولاى أمير المؤمنين محمد المهدى بالله - أعزه الله .. مولاتى الذلفاء تبشرك بأن الخليفة أعزه الله قد أصدر قرارا بتوليتك الحجابة إلى جانب قياده الجيوش . . وتقول لك بإسم أمير المؤمنين أن تأخذ البيعة من جندك . وأن تحضر بقواتك إلى قرطبة وفى يدك رأس المارق " شنجول " .

- **جعفر** (مبتهجا) : السمع والطاعة لأمير المؤمنين .

رغم مقدرة جعفر القتالية واستطاعته إلحاق الهزيمة بملوك أوروبا إلا أنه اعتمد فى معاركه على بعض المناوشات التى لا تحرز نصرا حاسما ولا تستدعى هزيمة لقواته .. وكان القصد فقط من هذه الحرب أن يظل الجيش بعيدا عن قرطبة منشغلا بمعاركه حتى يتثنى للثورة إتمام هدفها . وحين انتصرت المعارضة بمبايعة الخليفة كان عليه أن يغير من آدائه .. ولذا جمع الجيش وخطب فيه قائلا ....

" يا جند الله . لقد ثار اخوانكم أهل الأندلس على حكم شنجول واعلنوا قيام دولة الخلافة العادلة . والآن فإن جماهير الأمة قد بايعت لأمير المؤمنين محمد المهدى بالله - نصره الله . وآن لنا أن نبايع للشرعية الجديدة الأكيدة .. وقد عاهدت الله أن أبايع لأمير المؤمنين لإرجاع الحق إلى أصحابه مادام الله قد أظهر الحق بالثورة المنتصرة . وقد ولانى الخليفة أمر الحجابة والقيادة معاا . وانى أدعوكم إلى مبايعته أعزه الله والتقبض على شنجول كما جاء فى كتاب أمير المؤمنين " .

عندما وجد الجنود أن قائدهم قد بايع للعهد الجديد . وأن أهاليهم الأندلسيين قد بايعوا . وأن الخليفة قد عين جعفر حاجبا بدلا من شنجول , فلم يجدوا أمامهم إلا أن يبايعوا .. وهو حال الجيش دائما أن يتبع الجنود قائدهم ويعتبرون تصرفاته ومواقفه بمثابة " الأمر العسكرى " لهم . ولذا صاحت العساكر ..

- نبايع لأمير المؤمنين على السمع والطاعة ..
- النصر لمولانا الخليفة .

إلا القوات " العامرية " – المخلصون لشنجول وفاءا لأبيه – فإنهم عصوا جعفر ووصفوه بالخيانة . . ولم يجد جعفر بدا من محاربتهم بإسم أمير المؤمنين ووصفهم بالعصاة . وما هى إلا ساعة من نهار حتى هزمهم وقطع رؤوس أسراهم وعلقها فوق الرماح . ثم سحب قواته من الحدود عائد إلى مدريد للتقبض على شنجول ثم الرحيل إلى قرطبة . . وما ان انسحب جعفر من على الحدود حتى استعاد الملك سانشو مواقع قواته فيها وبدأ يثخن فى الأهالى .

# # #

دخل جعفر مدريد بصحبة الجيش ومعه حراب طويلة يحملها الفرسان معلقة عليها رؤوس العامريين .. وجد شنجول يركب حصانه ويطارد غزالة صغيرة وحوله بعض حرسه ..

- **شنجول** : عدت منتصرا من معاركك بسرعة يا " حديدى " .. أتذكر أنا أول من أطلق عليك هذه الكنية .. انتصرت على الفرنجة أليس كذلك ؟ .. كنت واثقا من نجاحك .. لكن لا تنسى أن النجاح سوف ينسب إلى عهدى . فهذه عادة الملوك .. **للقادة المغارم وللملوك المغانم** . . لكن ما هذه الرؤوس التى تعلقها فوق حرابك ؟ .

- **جعفر** : ألا تتبينها يااااا .... ياا مولاى !.

- **شنجول** (ينزل من فوق حصانه) : انها مهترئة الجلد .. ملطخة بالدماء .. لكنها بالتأكيد رؤوس الفرنجة من أسراك .. حسناا سوف ندخل بهم قرطبة فى موكب النصر .

- **جعفر** : أنت لن تدخل قرطبة يا شنجول .. وهذه الرؤوس هى لجندك العصاة من العامريين ..

فجأة علا صوت جعفر وأمر جنده قائلا ...

- أقبضوا على حرس هذا المارق ... هياااا ...

- **شنجول** : ما بك يا جعفر .. هل جننت .. تقبض على حرسى !؟ ...

- **جعفر** : ليسوا حرسك , بل جنود أمير المؤمنين أعزه الله . إن شاء أعدمهم وإن شاء اطلق سراحهم .

- **شنجول** : أمير المؤمنين !!!! .

- **جعفر** : لقد ثار شعب الأندلس على حكمك وأسقط نظامك .. مهران أضحى نزيل المطبق .. وكهرمانة وفائق لا أثر لهما . فروا بأموالك ...

- **شنجول** : ماذا تقول .. ثورة .. وأين ولدى .. ولدى- وولى عهدى عبد العزيز .. أين ذهب .. ؟

- **جعفر** : هو أيضا لا أثر له . ولم يعد ولى عهدك . فقد صرت أنا حاجب الأندلس ..

- **شنجول** : وماذا تنتظر .. فالنزحف على قرطبة لنخمد الثورة ...

أستدرك شنجول كلام جعفر ثم قال ..

- تقول أنك أصبحت الحاجب ؟ .. كيف .. ؟ .. وأنا .. ؟ .. ومن ولاك ؟ .

- **جعفر** : ولانى أمير المؤمنين محمد المهدى أعزه الله . أما أنت فقد صدر أمر الخليفة بإعدامك .

- **شنجول** (صرخ) : انها إذن مؤامرة .. سوف أقتلك قبل أن تنال بغيتك منى .. كنت دائما كلب خائن ... قتلت أخى عبد الملك والآن تريد قتلى .

- **جعفر** : قتلت عبد الملك بأوامرك . والآن اقتلك بأوامر أمير المؤمنين .

- **شنجول** (يشرع فى الهجوم على جعفر وهو يصيح) : كلب .. كلب ..

حاول أن يقتل جعفر بأن استل سيفه . لكن جعفر كان أسرع منه إليه , أخرج بلطة من قراب بقدمه ورشقها فى قلب شنجول , وتركه يتخبط بدماءه . وما هى إلا دقائق حتى فارق الحياة . فأمر جعفر بقطع رأسه , ولفها فى ملح وكافور حتى تتحمل الطريق إلى قرطبة .

(4)

فى قصر الزهراء وضعت رأس شنجول تحت أقدام الخليفة المهدى , الذى حملها من صندوقها بيديه وهو يردد قائلا - " الحمد لله الذى أظهرنى عليك " ..

- **جعفر** : هاك رأس عدو الله وعدوك يا أمير المؤمنين . وبعد أن شرفت بمبايعة مولاى , إسمح بالإنصراف لأستريح من وعثاء المعارك والسفر .

- **الخليفة** : دائما تحسن الفعل يا جعفر .. يا حاجبنا الهمام .

يرحل جعفر وتدخل الذلفاء , تقبل يد الخليفة , فينزل من فوق عرشه ويمسك بيدها ويجلسها على احدى الأرائك . ثم يجلس بجوارها ..

- **الذلفاء** : أنه خطر يا مولاى .. ولا يؤتمن الخائن .. اقتله ..

- **الخليفة** : هل نقتل رجلا من أشياعنا ؟ .. لقد ثأرنا لكى من شنجول لمقتل ولدك .. ألم يروى دم شنجول عطشك !! .

- **الذلفاء** : لن يروى عطشى إلا بدم جعفر . ومع ذلك فأنا لا آخذه بتلك , وإنما آخذه بجريرة الخيانة . لقد قتل ولدى عبد الملك إرضاءا لشنجول ثم قتل شنجول تنفيذا لأوامرنا – أقصد أوامر أمير المؤمنين – وقد يقتلنا جميعا إنصياعا لمنتصر جديد . . أهذا قائد جيش أم رئيس عصابة ؟؟ . . لست أول حاكم يقتل قائده يا أمير المؤمنين ولست الأخير . والسلطان أثير لسلطانه يصنعه أولا ثم يصبح صنيعته ثانيا . لا فكاك له منه وإن أراد ذلك . فاقتل من ترتاب به . خذ الرجل بالظنة ولا تبالى .

- ... **مازال هذا الأمر يجرى على سنة بينة وإلى وجهة واضحة . تنتصر الثورة فتبطش بأعداءها أولا ثم إذا فرغت منهم أرتدت على أهلها وأصحابها تتضربهم ببعض . وحين تتخلص من صانعيها الذين أشعلوا جذوتها عندئذ تنتهى الثورة وتبدأ الدولة على الحقيقة ولها رجال غير رجال الثورة** .

- **الخليفة** : وان قتلنا جعفر . من نولى على رأس الجيش ؟؟ ..

- **الذلفاء** : تولى جؤذر يا مولاى . فارس بنى أمية .

- **الخليفة** : اختيار حسن . . وعلينا كذلك أن نسرع فى البحث عن كهرمانة وفائق لإعدامهما . وأن نقتل مهران الصقلبى , فكلهم من رجالات شنجول - لا أقال الله عثرته .

- **الذلفاء** : كلا يا مولاى . انك – وأمير المؤمنين أعلم وأحكم – سوف تبقى على نظام شنجول , فهم يفهمون هذا الشعب جيدا , وأقدر الناس على التعامل مع دولة الأندلس .. ولا تنسى أن بنو عمومتكم من الأمويين يطمعون الآن فى الخلافة أكثر من ذى قبل بعد أن بعث المنصب والمركز من رقدته الطويلة . ولن يكسر شوكة الأمويين إلا رجل من معدن مهران الصقلبى . . ولذا فإنى أنصح بإطلاق سراحه .

- **الخليفة** : حسناااا .. أصدرنا قرارنا بعزل الحاجب جعفر الحديدى وبالعفو الشامل عن أركان نظام شنجول .

- **الذلفاء** : جعفر لا ينكسر بالعزل يا أمير المؤمنين . بل بالقتل غيلة . فهو أمير الجند وقد قويت شوكته بعد الإطاحة بالعامريين . . أرجو أن يسمح لى مولاى بتدبير الخلاص منه .

- **الخليفة** : سمحنا لك .

.....
.....

خرجت الذلفاء من حضرة الخليفة ودخل " بزواج " . انه صديق حميم لمحمد المهدى منذ أيام الصعلكة ... !!! .

- **بزواج** : إأذن لى يا أمير المؤمنين لقد سمعت من خلف الستائر ما دار بينك وبين الذلفاء ..

- **الخليفة** : وهذا ما طلبته منك .. لابد أن أعترف باننى لازلت قليل الخبرة بأمور السياسة والحكم , ولذا أمرتك بأن تقبع خلف الستائر لتسمع ما يدور من أحاديث حتى تحلل لنا ما يغيب عنا .

- **بزواج** : حاش لله أن يغيب أمرا عن فطنة أمير المؤمنين . لكنى – وبعهد الأمان الذى أكرمنى به مولاى الخليفة – أقول لكم بأن هذه السيدة تسعى لكى تجعل قرار الأندلس رهينة لها ولتنظيمها .. وقد أرعبنى تدبيرها على ما فيه من سعة حيلة .

- **الخليفة** : أعلم أن تنظيم الذلفاء وجماعة الأمويين يريدون تحريكى مثل الدمية .. ولكن لا بأس .. سوف أجعلهم يتصورون ما يشاؤون ثم أطلق عليهم سهاما من مكرى وخديعتى . ولكن حين تتمكن قوائم الخلافة .. و أول القرارات التى سأنفذها دون مشورتهم هى تعيينك حاجبا للأندلس .. فهيأ نفسك للمنصب حين نسمع بخبر مقتل جعفر .

- 3 -

انـهم يألـهـون الطـاغـية

أخطر مأساة فى التاريخ . ان كل خليفة حى هو مصدر الحكمة وينبوع المعرفة ونموذج الكمال . وهو يظل كذلك حتى يموت . فإذا مات , فهو منبع الجهل ومصدر الظلم والنموذج الأكبر للفساد والاستبداد .. مأساة حقيقية .

محمود السعدنى

(1)

الحراس يفتحون زنزانة مهران الصقلبى ..

- **مهران** : هل حانت ساعة إعدامى ؟؟

- **الحارس** : مولانا محمد المهدى بالله . يطلبك الساعة للمثول بين يديه الكريمتين فى الزهراء .

- **مهران** : يطلبى أنا ؟

.....
.....

على باب الخليفة يقف مهران الصقلبى فى انتظار الأمر بالدخول . . يقول له تشريفاتى القصر ...

- عليك أن تدخل منحنيا .. وحين تقترب من العرش تركع أمام الحضرة الشريفة .. ثم تقبل ثوب أمير المؤمنين .. واياك أن ترفع بصرك قبل أن يأذن لك .. وإن أذن لك بالحديث فلا تضع عيناك فى عين أمير المؤمنين بل تشخصهما دائما إلى الأرض .

- **مهران** : ما كل هذا الخشوع .. لم نكن نقابل شنجول بهذه الهالات من القدسية .. هل أنا أمام بشر أم أمام إله ؟ !! .

- **التشريفاتى** (بحزم) : لا تشبه أمير المؤمنين بالمارق شنجول يا هذاااا ... إما أن تطع ما أمرت به أو ترحل .. وأعلم إنك إن رحلت فقد اجهضت كل احتمالات العفو عنك . فلا تكن أغبى الناس .

دخل مهران وانحنى أمام العرش ونفذ كل ما أمره به التشريفاتى ..

- **الخليفة** (مبتسما بتشفى وكبرياء) : قم يا مهران .. أنظر إلى ...

نهض مهران من ركوعه ونظر إلى وجه الجالس على العرش , وكانت دهشته قاتلة حين فؤجىء بمحمد بن عبد الجبار .. ذلك الشقى الذى ضربه فى السجن بتهمه إثارة الناس وجعل عساكره يشتموه ويهينوه ..

- **مهران** (هامسا - مندهشا) : محمد ! .. محمد بن عبد الجبار .. !

- **الخليفة** : بل أمير المؤمنين محمد المهدى بالله ... هل تذكر حين روعتنى فى المطبق ثم عفوت عنى على ألا أتكلم فى السياسة أو أخطب بالناس فى المساجد , كان من المفترض

أن أعدمك الآن , فإن أول ما يسعى إليه الخائف حين يتمكن هو إهلاك من روعه . لكنى لن أعاملك بالمثل وعفا الله عن ما سلف من الماضى . فالنجعل اهتمامنا بالحاضر . وأنا الحاضر ولا شىء غير الحاضر . لن أروعك بل سوف أشركك فى الحكم وأسمع منك كل ما تقوله فى السياسة . . هل رضيت ؟؟ .

- **مهران** (تحشرج صوته) : رضينا بما يرضى أمير المؤمنين .

- **الخليفة** : سوف تبقى رئيسا للشرطة وكبيرا للبصاصين .. ولكن ديوانك سوف ينتقل من قصر الزاهرة إلى قصر الزهراء .. أما ديوانك فى المطبق فسوف يظل على حاله لك .

- **مهران** (هم لينحنى مرة أخرى على ثوب أمير المؤمنين يقبله) .

- **الخليفة** : وأول امرنا الصادر إليك يا رئيس شرطتنا أن تدلنا على مكان كهرمانة وفائق وعبد العزيز بن شنجول . وأموال الحاجب المقتول وأوراق الدولة .. فقد بحثنا عن كل ذلك لكن لم نجد أثرا لشىء .

- **مهران** : هب لى يومان يا مولاى . وليكن فى ذلك اختبار ولائى .

# # #

ذهب مهران إلى معتقل المطبق ومعه أمر الخليفة ببقاءه رئيسا للشرطة . وهناك استحضر عدد من الفرسان . وتوجه إلى الزاهرة .. لقد أصبح قصر الزاهرة أشبه بأطلال يسكنها البوم بعد ان سرقه العامة وعاثوا فيه فسادا .

كان مهران يعرف أن مدينة الزاهرة بكل ما تحتويه من قصور للحاجب ترقد فوق مدينة أخرى تحت الأرض . انها مدينة سرية ابتناها المنصور أبى عامر لكى يخفى فيها الأموال بعيدا عن العيون , ولكى يختبأ بها – هو وحرمه ورجاله وأولاده – حين تداهمه الأخطار .. النزول إليها يكون من خلال سلالم ضيقة توصل إلى دهليز سرى .

وحين تمشى فى الدهليز لمسافة طويلة متعرجة تصادف حائط ضخما يبدو وكأنه مصمت لا يوصل إلى شىء .. ولكن إذا أمسكت بالحائط فى موقع معين انفتح لك لتجد أمامك مدينة أخرى تحت الأرض لا تقل جمالا عن الزاهرة الفوقية .. مدينة خلابة يصلها الهواء من منافذ لا تعرف لها مكانا . ويصلها الماء من نهر " الوادى " – الذى يقطع قرطبة – عبر مجارى أرضية .. المدينة السرية بها مخازن للقمح والغلال . وهى تصلح سكن لألف مختبىء لمدة عام دون أن يحتاج إلى العالم الخارجى فى شىء .

.....
.....

أقتحم مهران الدهليز وأزاح الحائط ثم داهم المدينة الأرضية بجنوده . لمحته كهرمانة فأرتمت فى أحضانه ..

- **كهرمانة** : مهران .. هل أخمدت الثورة . لقد أنقذتنا يا بطل الأندلس .. أين مولاى شنجول ؟! .

دفعها مهران بعيدا عن صدره وأصدر أمره بالتقبض عليها .

- **مهران** لجنوده : أقبضوا على تلك المرأة وعلى المحتسب فائق وعلى كل من بالداخل .. أشحنوا الأموال والخدم وما وجدتم من وزراء وأوراق إلى معتقل المطبق .

- **عبد العزيز** : ما هذا يا رئيس الشرطة . هل يعلم أبى ما تفعل ؟ .

- **مهران** (ينحنى بتهكم) : أهلا بولى عهد الحجابة !! . إن بقاءك حيااا خطرا . فقد تطالب يوما بما لم يعد لك ...

صاح مهران بجنوده اقتلوا هذا الغلام .. لم يكد عبد العزيز يفهم ما يدور حوله حتى ضربه جندى بحربة فى ظهره فنفذت إلى صدره .

صاحت كهرمانة تصرخ ثم أغمى عليها . ولم تفيق إلا على وعاء ماء يسكبوه على وجهها فى احدى زنازين المطبق المظلمة .. وقد تولى مهران التحقيق معها ..

.....
.....

- **مهران** : ياااا كهرمانة . لقد قتل شنجول . وصار الأمر لأمير المؤمنين محمد المهدى . وما علمته أن النظام الجديد قد اكتفى بقتل أبا المطرف وابنه عبد العزيز . أما نحن فسوف نبقى فى أماكننا .. لا يستطيعون الإستغناء عن كيانات الدولة فى الشرطة والحسبة والقصر والجيش . ولقد أضحى جعفر حاجبا لأمير المؤمنين وقائدا لجيشه , وأنا أيضا لن أغادر منصبى . أما شئون الحرملك فسوف تبقين على رئاستها وكذلك فائق فى الحسبة . . وأنى أناشدك الله ألا تضطرينى لأن أعذبك . فهم يريدون أموال شنجول , ولا يعلم مكانها غيرك . وقد وعدت أمير المؤمنين بها .. فاستبقى على كرامتك ودلينى عليها .

- **كهرمانة** : لم يكن شنجول رحمه الله رئيسى فحسب . بل كان حبيبى أيضا . وأنت تعلم ذلك .. فإن أطعت صوت العقل الذى تتحدث به , لرفض قلبى الانصياع ..

- **مهران** : اللهم بلغت . اللهم فاشهد . . أيها الحرس احضروا سلة الجرزان ...

ألقى الحرس كهرمانة على ظهرها وهى تصرخ ثم كتفوها و مزقوا ملابسها من عند نهديها على مشهد من مهران , ثم قطعوا لحمها بسكين حاد قطعا خفيفا يمر بالجلد ووضعوا سلة فئران مفتوحة من أسفل على صدر كهرمانة حتى تأكل القوارض من دمها ولحمها ..

كانت كهرمانة تصرخ وتبكى وتصبب عرقا وألما . ومهران يضحك ضحكته المرعبة ...

- **مهران** : ان قلبك لا يطاوعك أن تخونى شنجول وتدلينا على أماكن الأموال .. إذن سوف تأكل الفئران هذا القلب العامر بالحب .. سوف تنهش فى لحمك وتشرب دمك حتى تصل إلى فؤادك العاشق أيتها القوادة الرخيصة ..

- **كهرمانة** (تصرخ . تصرخ) : سوف أتكلم .. سأتكلم .. أرفع الجرزان من فوق صدرى !!! .

- **مهران** (أشار لجنود برفع قفص الفئران) : لا ينفع عنادا مع مهران ..

(2)

عثر الناس على جثة جعفر الحديدى عائمة فوق نهر " الوادى " .. حملوه إلى البر وسط ذهول الجميع .. يضربون كفا بكف ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله

يصيح رجب المجذوب ..

- أكله الضبع . وسوف يأكلكم .. أكله الضبع . وسوف يأكلكم

# # #

فى وكالة الشيخ ريحان العطار يجتمع أصدقاءه من أرباب التجارة والحرف وأصحاب المحلات ..

- **عم عدوى** : هو ايه اللى بيحصل فى البلد ياااا اخونا .. أنا بصراحة شاكك أن جعفر الحديدى يكون اتقتل . . من ساعة الخليفة ما حكم وحال البلد ما بقاش يسر عدو ولا حبيب .

- **حسن "الحداد "** : هو من امتى كان حال البلد يسر ؟ .

- **عم عدوى** : لكن احنا اتفاءلنا بالخير لما جاءنا حكم الخليفة .. أيام شنجول كان الجميع يعلم أن حكمه فاسد وأن الجوع والفقر يعضان البلاد وأن العامريين عسكر مستبدين ... لكن منذ أن تولى محمد المهدى فقد أضاف الفوضى إلى الأندلس .

- **الشيخ ريحان** : يا جماعة حرام عليكم .. امنحوا الرجل فرصته ..

- **عم عدوى** : أى فرصة والوضع لا يبشر بالخير !! .. أيام شنجول كنا على الأقل نستشعر الأمان . أما الآن فقد تفشت أعمال النهب والسلب والقتل دون أى رادع .. المجرمين الذين أطلقهم مهران أيام الإنتفاضة لايزالون يعيثون فسادا فى البلاد . والأنكى من ذلك أن مهران نفسه ظل رئيسا للشرطة . هل هذا هو الثأر لشهداء الثورة الذى وعد به أمير المؤمنين ؟؟ .

- **حسن " الحداد "** : ليس مهران وحده على رأس الجهاز الأمنى فى البلاد . بل نظام شنجول كله ظل فى مكانه .. كهرمانة القوادة رئيسة للحرملك الخلافى . وفائق ناظرا للحسبة الشريفة , وغيرهم وغيرهم , وبالطبع فإن أسعار السلع الإستهلاكية آخذة فى الإرتفاع - تماما كما كان الحال فى العهد السابق .

- **رودميرو " الخباز "** : رغم انى مسيحى , الا أننى وكل أهلى قد نشأنا فى الأندلس بين المسلمين – كما تعلمون – وصاروا لنا أهل وصحبة .. وانى أخشى أن انتقد الخليفة فى أمر من أمور الدولة الداخلية فتتهمونى انى أعاديه لمجرد أنه جعل الدولة دينية إسلامية . ولذا فأنا أقول لكم أن ممالك الشمال المسيحية منذ ولى أمير المؤمنين وهى تغير على بلادنا وتقتطع مناطق على حدودنا . وهذا لا يرضى اخوانى المسيحيون مواطنى الأندلس – ولذا فنحن نناشدكم أن ترفعوا إلى الخليفة (فى خطبة الجمعة حين تلقوه) رجاءنا بأن يجاهد ممالك أوروبا وسوف تكون سيوفنا فى خدمته .

- **حسن " الحداد "** : اننا فى خطبة الجمعة نرى الخليفة عن بعد فلا نستطيع الإقتراب منه أو التحدث إليه وإلا قتلنا الحرس بسهم نافذ .. ثم ان أمير المؤمنين لم يقم الدولة الدينية , فدولة الإسلام هى المشورة والحرية والعدل , فلا تغرك يا رودميرو مظاهر الصلاة فى المسجد التى يحرص عليها كل جمعة .

- **الشيخ ريحان** : يا اخوانى أنكم تتحاملون على الخليفة بأكثر مما ينبغى .. لقد ورث دولة مفلسة . وحروب فى الخارج . وجاء على خلفية ثورة حولها الأوغاد إلى فوضى . وهو مطالب بأن يصلح كل ذلك وأن يعيد الأندلس إلى سيرتها الأولى من المجد ولا يتثنى ذلك إلا بالوقت , فأمهلوه , إذ خلق الله الدنيا فى ست أيام .

استأنف الشيخ ريحان حديثه ..

هل نسيتم " محمد بن عبد الجبار " حينما كان يمشى بينكم فى الأسواق منحنيا .. منكسرا .. وزائغ العينين حسرة على حالكم وحال ديار الإسلام .. كنا نراه دائما يجلس فى مسجد قرطبة يستغفر الله ويتلو سورة الرحمن . . كان كالأطفال يبكى إن تذكر الرسول أو جاء ذكر الله ذى الجلال والإكرام .. كان تقيا ورعا يخاف أن يدوس النمل أو يروع الحمام ..

- **حسن " الحداد "** : والآن صار محمد بن عبد الجبار هو أمير المؤمنين محمد المهدى بالله .. المهدى المنتظر الذى انتظرناه جميعا , فأكتشفنا أن أمير المؤمنين مسرحى الطموح , يلبس وجها للهزل وثانيا للجد - وكلاهما تمثيل ..

- **عم عدوى** : والأشد من ذلك أن الأمير المستكفى قد حصن نفسه فى طليطلة وهو الآن يجمع حوله كل المعارضين للخليفة ويدعى أنه أحق بالعرش .. بل ويراسل أعداء الله من الفرنجة . أما محمد المهدى فهو يغض الطرف عن كل ذلك .. توشك طليطلة أن تخرج عن حكمه وإن حدث ذلك سوف تتبعها إلى التقسيم كل دويلات الأندلس .

- **رودميرو** : قد سمعت أيضا أن الشعراء – وهم إعلامه – ورجال دولته – وهم أركان نظامه – صاروا يقدسوه فى أشعارهم ويضفون على شخصه هالات من النبوة - وليعاذ بالله . . أنهم بذلك **يصنعون طاغية** يتخذ من الدين مرجعيته وهو طغيان يفوق فى ضراوته ما تثنى لدولة العسكر .. فالطغيان الدينى أبشع من الطغيان العسكرى وكلاهما طمع سياسى فى السلطة .

- **الشيخ ريحان** : لا تنسوا أن الخليفة بايعته الأمة وانتخبناه جميعا . وهو إجراء حر لم يكن يحدث فى عهد العسكر من العامريين .

- **حسن** : وهو يعاقبنا على مبايعته ! . هل الخليفة المنتخب قد رفع فوق الحساب والسؤال ؟ . ان اختيار الناس له أدعى أن يراعى مصالحهم . أم انه يصعد بالشورى إلى العرش ثم يلقى بسلمها حتى لا يصعد عليه سواه – أو يحاسبه أحد !! .

(3)

وصل نبأ مقتل جعفر الحديدى إلى الزهراء فلم يكن الخبر غريبا على مسامع الخليفة , فقد وعدته الذلفاء بالخلاص منه . . أدعى محمد المهدى الحزن ثم نعى إلى رجال الدولة خبر غرق قائده ..

- **الخليفة** : لله ما أخذ ولله ما أعطى .. يتعرض الفارس فى الحرب للموت فى كل لحظة يخوضها . تصطدم الخيل بالخيل . تطيش حوله الرماح . تخطئه السهام . تصطدم السيوف . ويحيط به العدو من كل جانب - ثم يشاء الله تعالى أن يعود إلى أهله .. فإذا وقع القدر مات بأهون الأسباب . . على كل الأحوال فقد قررنا أن نعهد إلى صديقنا " بزواج " بالحجابة وإلى قائدنا " جؤذر " بقيادة الجيش . . والآن فاليدخل الشعراء والندماء ..

يهم الشاعر " الأحوص " واقفا ثم يقول فى مدح الخليفة ...

الله طوقك الخلافة والهدى .. والله ليس لما قضى تبديلا
ولى الخلافة والكرامة أهلها .. فالملك لك والعطاء جزيلا
أنت المبارك يهدى الله شيعته .. إذا تفرقت الأهواء والشيع

يا آل أمية ان الله فضلكم .. فضلا عظيما على من دينه البدع

- **الخليفة** : أحسنت يا أحوص . . أعطوه ألف دينار .

تهمس الذلفاء فى أذن مهران الصقلبى قائلة .. "" أنهم يقدسوه فى أشعارهم .. نسى أن الشعب هو الذى أجلسه على عرشه . والآن فقد صار موهوما أن الله سربله الحكم حتى يكون ظله على الأرض "" .

- **مهران** (مازحا) : أسكتى ولا تقبضت عليكى بتهمة العيب فى ذات الخليفة .. انها تهمة عقوبتها الإعدام .

- **الذلفاء** (هامسة) : كنت أدبر لأن أجعل منه **حاكما** لكى أحركه من خلف الستائر . ولكن كهرمانة كانت أذكى منى فقد جعلت منه **نبيا** لكى تحركه هى .. كل فرد من رجاله وحرمه زايدوا فى تحلية صورته حتى يسيطروا من خلفها , وفى النهاية سوف يبتلعنا محمد المهدى جميعا !! . . سحقا لك يا مهران إذ أدخلت الحية كهرمانة داخل القصر الخلافى فصار أمير المؤمنين لا يستمع إلا لها بعد أن سلبته عقله .

- **مهران** : استمعى إلى الشعر أو أصمتى ..

يدخل الشاعر درويش الأحمدى فلا يجد فى مدح الخليفة أفضل من أبيات قديمة للشاعر عدى بن الرقاع فيصيح قائلا ...

الأرض لله ولاها خليفته .. وصاحب الله فيها غير مغلوب
يكفى الخليفة أن الله سربله .. سربال ملك به تزجى الخواتيم
وما الناس أعطوك الخلافة والتقى .. فاشكره يثبك مثيب

واستمر الشعراء يتبارون فى مدح الخليفة , وهو ينثر المال عليهم ذات اليمين وذات اليسار .. حتى دخلت كرهمانة ومالت على أذن أمير المؤمنين تحدثه أن يأمر بإدخال المطربة " طاروب " ...

- **الخليفة** : اكتفينا من سماع الأشعار والآن حان وقت الغناء . . أدخلوا علينا " طاروب " ..

طاروب مطربة جميلة عذبة الصوت من " صناعة " كهرمانة . هيأتها خصيصا لكى تخدم سياستها فى تقديس الخليفة ... قررت كهرمانة أن تنتقم لحبيبها شنجول بأن تنفخ من مقام أمير المؤمنين حتى ينفجر غرورا هو ودولته . وقد وجدت سهولة منقطعة النظير فى مهمتها الجديدة .. فالعرب لديهم ميل فطرى إلى التضخيم من مكانة الحاكم وجعله فوق البشر .

ومن أشعار ابن هانىء الأندلسى تغنى طاروب ..

ما شئت لا ما شاءت الأقدار .. فاحكم فأنت الواحد القـهار
وكأنـمـا أنـت النـبى محمـد .. وكأنـما انصـارك الأنـصـار
ندعوه منتقما عزيزا قادرا .. غفار موبقة الذنوب صـفوحا
أقسمت لولا دعيت خليفة .. لدعيت من بعد المسيح مسيحا

ورغم ما تبدى فى أغنية طاروب التى شدت بها من كفر بين , وتشبيهات صـريحة تؤلـه الخليفة ومقابلات بينه وبين الرسل و الأنبياء .. إلا أن المهدى " المنتظر ! " لـم ينتفض لمقام الجلالة والمرسلين , وكل ما فعله أن أعطى طاروب ثلاثة آلاف دينار من الذهب . . كان فـى الماضى يسحب يده إذا هم بتقبيلها أحد الرعيـة حتـى خـدعهم وفتنهم عن نفسه . ولمـا صـار الأمر إليه أضحى الركوع فى حضرته أمرا عاديا والسجود من نواميس الملك ...!! .

حتى الإمام **" أحمد بن برد "** وهو إمام مسجد قرطبة نراه يطيع أمر السلطان متخذا من آيات الله وسيلة للنفاق .. كـان فـى زمـن شـنجول يـردد دائمـا " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " , وكان قد أصدر فتوى " شرعية ! " بوجوب ولايـة العهد إلـى ابنـه عبد العزيز ...

أما الآن فى عهد محمد المهدى – زاد تمرسه – فأشـاع ابن بـرد بين النـاس **" مـذهب الجبر "** حتـى يقنـع الرعيـة أن الله قد اختـار لهم الخليفـة المهـدى ظـلا لـه علـى الأرض وهم **مجبرون** على الطاعة لولى الأمر لأن الإنسان مسير وليس مخير . فالسلطة يتم تحديدها من الله ولـيس للنـاس فيهـا رأى ولا مشـورة . . والخليفـة هـو (خليفـة الله علـى الأرض) و (أميـر المـؤمنين) و (الأمـين والمـأمون) و (أمـين الله) و (إمـام الإسـلام) !! . . وكـل تلـك المسميات التـى تجعل المـرء ينتشـى بمسند التأسلم وخمـر السلطة فلا تـروى عطشـه أبـدا . وبذلك حق القول أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة .

بل إن الإمام أحمد بن برد كان ينشد دائما فى حضرة الخليفة من الشعر العباسى قائلا ...

أتته الخـلافـة منقادة .. إليه تجـرر أذيـالـهـا
ولم تك تصلح إلا لـه .. ولم يك يصلح إلا لـها

(4)

الجنود يتقبضون على الشيخ ريحان ويذهبون بـه إلـى قصـر الزهـراء . وفجـأة وجـد الشـيخ ريحـان نفسـه مـاثلا بين يـدا الخليفـة فـى قاعـة العـرش . . لكن الجنـود حين بطحـوه أرضـا لـم يسمحوا له بالوقوف وظل يتحدث وهو راكعا على قدميه ..

- **الخليفة** : كيف حالك يا شيخ ريحان ؟.
- **الشيخ ريحان** : أعيش فى نعمة وفضل من أمير المؤمنين .

- **الخليفة** : كنت فى الماضى تجعل من دكانك موطأ لحديث السياسة , وكنت أنا أحد أصحابك اللذين تجمعهم .. وكنا نتحدث عن زمن العدل . وخبر الماضى الذى يعد بالمستقبل . الماضى الذى عفا عليه آل عامر , والمستقبل الذى حجبه واقع الحال .

- **الشيخ ريحان** : كان ذلك فى الماضى يا أمير المؤمنين , أما الآن فإننا لا نتحدث إلا عن عهدك الكريم . فأنت صاحب الحق الذى لا يخالطه باطل والصدق الذى لا يشوبه كذب .

- **الخليفة** : ولكنك تكذب يا ريحان .. " عدوى بائع العطور , وحسن الحداد , ورودميرو الخباز " .. وغيرهم وغيرهم من الساخطين على حكمنا تجمعهم عندك كل يوم بعد صلاة العشاء . . أعلم انك لم تشاركهم رأيهم ضدنا , وانك قلت لهم **" أمنحوه فرصة ! "** .. ولكن هذا لا يكفى لضمان إخلاصك .

- **الشيخ ريحان** ((اندهش لمعرفة الخليفة بما دار فى وكالته . فهو يعرف الجميع ولا يمكن أن يكون أحدهم جسوسا)) : ... سوف أمنع مجالس دكانى إذا أمر أمير المؤمنين .

- **الخليفة** (أشار للحرس بأن يتركوه يقف على قدميه) : كلا يا شيخ . اجتماعاتكم لا تضايقنى , بالعكس فأنت رجل كريم , وأنا أريدك مرآة أطل بها على الشارع .. صحيح أن مهران كبير البصاصين يبلغنى بأشياء لكنها ليست كل الأشياء . فأريد وسيلة أنظر بها على الأهالى غير دوائر الحكم الرسمية . فلا أحب أن أعتمد على الجهاز الأمنى وحده فى جمع المعلومات . . أريدك أن تكون عين الزهراء بين الناس .

- **الشيخ ريحان** : الناس أنزلوك قلوبهم قبل أن ينزلوك كرسى الخلافة لما رأوه فيك من تواضع وبساطة وخفة روح . . لكنى لا أستطيع أن أنقل تحفظهم عنك إليك حتى إن قتلتنى - فهم أصدقائى وجيران ورفقاء عمرى .. ولديك شرطتك فافعل بها ما شئت وهى أقدر منى على نقل الأخبار وجمع المعلومات .

- **الخليفة** : أن اخلاصك للأندلس يحتم عليك أن تفعل ما آمرك به .

- **الشيخ ريحان** : اخلاصى للأندلس أم لك ؟

- **الخليفة** (صائحا) : أنا الأندلس ... ! . . ووكالتك هى بمثابة نادى للمحرومين والشاكين . فأرفع لى شكايتهم ولا تحسبن أن ذلك تجسس .. وأنا لن أترجاك طويلا .. بل إن دماء ابنك " أحمد " فى عنقك إن عارضتنى .. أما إذا نفذت أوامرى فسوف أزوج ابنك أحمد من " شمس " بنت عدوى من مال الخلافة - أنه يحبها كثيرا ... أليس كذلك ؟؟ .

خشى ريحان من تهديد الخليفة له بقتل ابنه أحمد فاسترسل قائلا .. الناس يتساءلون ..

* لماذا تترك الإسبان يغيرون على حدود المسلمين ؟ .

* لماذا لم تقمع الفوضى والمجرمين حتى الآن ؟ .

* أين الثأر لشهداء الثورة الذى وعدت به . تلك الثورة التى اجلستك على عرشك ؟ .

* لماذا الأسعار لا تزال فى ازدياد ؟ .

* لماذا أبقيت على كل رجال النظام السابق ولم تسقطه بعد سقوط رئيسه ؟ .

* لماذا تترك الأمير المستكفى يتحصن بطليطلة فيبدأ الإنقسام فى بلدان الأندلس ؟ .

* لماذا تدخل المدينة بحراسة مكثفة ترتعد لها الفرائس رغم أنك وعدت بألا تحاكى النظام السابق فى هذا وأدعيت أن حب الناس يحميك ؟ .

* ثم أين هى أموال الحاجب شنجول وضياعه التى قلتم أنها أموال أهل الأندلس ووعدتم أن تعود إلى أهل الأندلس ؟ .

- **الخليفة** (بدا عليه الغيظ لكنه كتم مراجل غضبه) : حسناااا . حسناااا .. سوف أقول لك ما تبلغه للناس حتى نهدىء من خواطر العامة , فأنت خير رسول للقيام بهذه المهمة على شرط ألا تبلغ أحد أنك رأيتنى ... وإلا فسد تدبيرى .

وبدأ محمد المهدى يتكلم بلهجة الواصلين . فتح عيناه عن آخرها وكأنه يبصر وحى السماء أو يقرأ الغيب .. ! .. يأمر الشيخ ريحان فى هدوء قائلا ...

قل للناس ...

- ... **أن عيونهم لم تخلق لتصبر غير الظاهر . الظاهر منتهى علم الناس والباطن علم خلفاء الله الواصلين . فللناس أحكام الظاهر وللعارفين أحكام الباطن .. علمنا علم الصدور يأخذه الحى عن الحى . وعلمكم علم السطور يأخذه الحى عن الميت .. فهل يستويان ؟ .. ومن أطال منكم النظر فى شئون السياسة وحاول التدبر وراء أسباب القرارات فكأنما ينظر إلى النجوم حتى يفقد بصره , وكان النور عليه عمى .. ومن تقحم نارنا نحن أولوا الأمر أحترق .. ومن غطس فى بحرنا شرق بالماء واختنق . . انما أعطيكم شيئا من نارى التى لا تحرق إلا لتضىء . فقط سلموا أنفسكم لضياءى ولو كان مبعثه نارى ... ودعوا السؤال والكلام . . العقل حجاب العامة , أما الخليفة فينكشف حجابه فيرى ما لا يرون . ولما كانت هذه الكرامة خاصة بأمير المؤمنين دون غيره من العامة , فقد صار على الناس أن يكلوا أنفسهم إليه . يرى لهم ما لا يرونه . فقوله وفعله هو الحق الذى يدور معه ان دار . وصار على الناس ألا تسأل ولا تنزل على الخليفة حكم الظاهر , فتضل وتشقى ويتسلل الشيطان إلى قلوبهم من سؤالهم . وما يزال بهم حتى يوقع أبليس فى قلوبهم الشك . فإذا وقع فقد هلكوا بأسئلتهم وألسنتهم وشكوكهم** .

خرج الشيخ ريحان من حضرة الخليفة وهو يكرهه بشدة . فالطريقة التى قبضوا بها عليه , وهالات القدسية التى تحيط بالمهدى , وتهديده بقتل ابنه , والأمر بأن يكون جسوسا على

الناس ومبرئا لذمة الخليفة - كلها أشياء أثارت حفيظة ريحان . . وما أن سمع هذه الكلمات حتى أدرك أن محمد بن عبد الجبار " المهدى ! " قد أصابه جنون العظمة , وصدق أنه من العارفين والطائرين والواصلين فوق البشر . وأشد ما اعتصر نفس ريحان أنه كان مضطرا أن يشيع بين الناس هذه الكلمات التى تشجعهم على الإستسلام للبغى والخنوع لسلطة الظلم – فلا سؤال ولا كلام ولا سياسة – لأن ولى الأمر يرى من صالحهم ما لا يرون . أنهم شعب قصر والخليفة هو الأب والنبى والإله !!! .

رغم ذلك كان مضطرا أن يبث تلك المعانى الأفيونية بين أصدقاءه وبين الناس . فقد خشى على حياة ابنه من القتل والتهديد , ولا فكاك من وحش لا يعرف الرحمة . مشى فى الشارع عائدا إلى دكانه وهو يحدث نفسه .. كان فى الماضى يدافع عن الخليفة طائعا . لكنه الآن يدافع عنه وهو مكره - وشتان بين الحالتين !!! .

- 4 -

قبة الورد

يا أخوتنا فى الأندلس . لقد كان عليكم أن تصلوا جماعة عندما عرفتم أن أعداءكم يتوضئون بالدم قبل أن يجيئوا للقائكم.

الشاعر الفارسى سعدى على الأرجح

(1)

" قبة الورد " أجمل المتنزهات العامة بقرطبة . انها حديقة واسعة يصافحها عطر الورود . تناجيها " زقزقة " العصافير . تشقها مياه الجداول وترتمى فى أحضانها البحيرات ... ما أجمل الأندلس انها جنات ونعيم لولا الطغيان الذى يجثم على أنفاسها . ثروتها هائلة وأرضها خصبة لولا الفساد الذى يطعن الأرض الطيبة وينتهب خيراتها لصالح العسكر والخلفاء وشعراء الحاكم وحريمه وشذاذ الآفاق .

فى " قبة الورد " يختلس أحمد ابن الشيخ ريحان ساعة من الوقت كل أسبوع ليلتقى بـ " شمس " ابنة الحاج عدوى .. يحبون بعضهم منذ نعومة أظافرهم .. فى الصغر كانوا يحبون بعض وهم لا يعلمون وفى الكبر صاروا يحبون بعض وهم يعلمون .

قرأت الفاتحة بين الأبوين ريحان وعدوى واتفقا أن يبنيا بيتا جميلا للحبيبان . وأن يكتب الكتاب بعد إتمام البيت المرتقب .

أحمد يساعد أباه فى الوكالة . يحب ركوب الخيل ويجيد المبارزة بالسيف حتى صار فارسا لا يشق له غبار . قوى البنية . ظاهر العضلات . رشيق مثل أرنب برى . كبير الطموح حتى تسبق أمانيه رجاحة عقله أحيانا .

أما شمس فهى ترسل أشعتها الدافئة وابتسامتها الخجولة الهادئة لتشيع الدفء فى كل من تلقاه . فتاة رقيقة لها نقاء جذاب .. ليت كل الفتيات يدركن أن نقاء السريرة حين يظهره الله على الوجه فإنه يبعث جاذبية لا تبعثها التصفيفات والتسريحات وحركات التكلف .

كانت شمس تضع رأسها على " حجر " أحمد تحت احدى الشجيرات فينساب شعرها الذهبى فوق أقدامه وعلى عشب النجيلة الأخضر , فتنسجم ألوان الطبيعة فى تزاوج يعانق احساس شاعر أو فنان أو عاشق أريب . . وكان أحمد قد جعل من أصابعه مشطا يسرح بها أهداب محبوبته فتسرح يده فى نعومه لا نهائية .

- **أحمد** : أفرشى شعرك فوقى مثل غابات النخيل , يرحل المشط وقلبى معه . إن من أغلى هواياتى الرحيل .. كيف استطعت أن تدخلين فى دمى وعروقى .. فيك شيئا يخترق الرجولة مثل رائحة الياسمين وعطر البرتقال .. شيئا يحرقنى يغرقنى ويتركنى بين الواقع والخيال .. فيك شيئا طفوليا بدائيا حضاريا ....

- **شمس** (تبتسم وهى تنظر إلى السماء) : يا حبيبى .. متى يجمعنا بيتنا الجميل ؟ .

- **أحمد** : كما تعلمين لا يؤخرنى عنك إلا بيتنا الجميل . فأنا أباشر العمال بدأب حتى يسرعون فى تجهيزه . سوف يكون أبهى من زهراء الخليفة .

- **شمس** : لا تقل ذلك وإلا سمعتك عيون مهران فينقل الخبر إلى أمير المؤمنين .

- **أحمد** : لا توجد عيون حولنا , فقد انتهى القمع من بلادنا يا شمس .

- **شمس** : كلا يا حبيبى . انك واهم . فى السابق كان مهران يعتقل الناس فى المطبق , أما الآن فقد أطلق المطبق على الناس .. المجرمين الذين دفع بهم إلى الشوارع ينفذون سياسته فى ارهاب الأصوات الحرة وفض التظاهرات بالعنف . . أعنى أن القمع لا يزال موجودا وإن اختلفت أساليبه لتتناسب مع الحرية التى يتبناها أمير المؤمنين ! .

- **أحمد** : لم أعرف قبل اليوم انك تهتمين بحديث السياسة .

- **شمس** : لم أقصد أن اتحدث فى السياسة ولكنى أخاف عليك . فأنت حسن الظن بالمهدى كأبيك الشيخ ريحان .

- **أحمد** : ان لم أحسن الظن بالمهدى المنتظر الذى انتظرناه طويلا ليحمل الحق على أجنحته , فلا خير فى هذه الدنيا .

- **شمس** : ان الدنيا لا خير فيها سواك يا حبيبى .. أرى فيك حاكم قلبى وزعيم فؤادى وقائد مشاعرى وجوانحى .

- **أحمد** : وأنا أرى فيكى الأندلس ...

يدخل " برنقش " غلام الشيخ ريحان إلى قبة الورد ويبلغ أحمد أن أباه يطلبه الآن ..

(2)

- **الشيخ ريحان** : أحمد .. لماذا تأخرت ؟..

- **أحمد** : كنت بوصل شمس لبيتها .. خير يا أبويا ..

- **الشيخ ريحان** : أنظر هذه الأموال التى بالصندوق . إنها أموال حملة شعبية لتأييد أمير المؤمنين .. سوف ننفق على العامة التى تخرج لتأييده فى مظاهرات لا مثيل لها .. سوف نحشد الناس من كل حدب وصوب .

- **أحمد** : من أين جاءتك هذه الأموال يا أبى ؟ .

- **الشيخ ريحان** : سوف أخبرك بما لم أخبر به مخلوق . لقد استدعانى الخليفة وأعطانى هذا المال لكى يدعم تأييده بين الناس , وسوف يساعدنى بدوره فى إنماء تجارتى وتوسيع تلك الوكالة العتيقة . ووعدنى أن يشرفنا بحضور فرحك على شمس بنت عدوى .

- **أحمد** (الفرحة ترقص فى عينيه) : ما أكرم أمير المؤمنين لم يخيب رجاءنا فيه . انه يصون عشرتك يا أبى حين كنت تخبئه فى الوكالة عن عيون مهران و شنجول .. انك أول من استمعت لدعوته بعودة الخلافة والدولة الدينية .

- **الشيخ ريحان** : والآن لا وقت للتردد ...

- **أحمد** : لن نكتفى بحملة شعبية لتأييد أمير المؤمنين , بل سوف نسلح الناس وننشىء منهم فرقة أسميها " **فرقة المهدى المنتظر** " , سوف تقوم الفرقة بالضرب على يد الذين يعتصمون ويندون بحكم مولانا الطاهر الشريف .

- **الشيخ ريحان** : سر على بركة الله يا أحمد . ولكن أحرص على نفسك جيدا .. قد تصبح يوما أحد فرسان بنى أمية .

داعبت أحمد خيالات الطموح أن يساند الخليفة بكل ما أوتى من قوة . بدأ يحدث نفسه عن كرم أمير المؤمنين الذى صان الجميل القديم لوالده وطول العشرة . سوف يحضر محمد المهدى فرحه على شمس ويساعد أباه فى تجارته . وقد يصبح الشيخ ريحان " شاهبندر للتجار " . وقد يصبح أحمد من فرسان بنى أمية وينفتح أمامه الطريق للوزارة أو قيادة الجيش أو الحجابة .. ان الفروسية والإخلاص لولى الأمر هما مفاتيح النجاح .. ! .

استمر أحمد يمنى نفسه بالعهد الجديد والأمل المنشود الذى يذكيه طموح الشباب . وما هى إلا فترة وجيزة حتى جهز " **فرقة المهدى المنتظر** " وسلحها جيدا واشترى لها الخيل والسيوف . . الفرقة مكونة من عدد من أصدقاءه اللذين وزع عليهم ذهب الخليفة فى وقت كان الفقر ينشب فيه أظافره بين الناس , وعلى ذلك فإن ذهب المهدى كان له وقع السحر على هؤلاء الشباب . وأستطاع أحمد وأصدقاءه بسلاح المال أن يجندوا الرعاع والمهمشين تحت لواء " **المهدى المنتظر** " !! .

وهنا ترسم السلطة ملامح جديدة لأحمد ابن ريحان . فقد أضحى سيفا من سيوف الله ! . أنه درع الخليفة وسوطه بين الناس . وبدأ يهاجم المظاهرات السلمية التى تندد بالخليفة الجائر , ويحشد الحملات ضد الإعتصامات ويشتبك مع الوطنيين الذين يسفهون مقام الخليفة ويقولون أن الدين لله والأندلس للجميع .

.....
.....

كان أحمد صديقا قديما **لحسن " الحداد "** الذى يعد واحدا من أشد معارضى الخليفة . فهو يرى أن المهدى لم يفعل شيئا لصالح الأمة منذ أن تولى , بل يساند الفوضى باسم الحرية , ويترك القمامة والأمراض يفتكان بالأمة , ويضرب العلماء بالدهماء , ويسلط إعلامه وشعراءه لرفع مقامه فوق مستوى البشر ... هل هذه هى دولة الدين التى اترجيناها ونادى بها الأمير محمد واخوانه الأمويين !! .

كان حسن يقول ...

- إذا كان المهدى يريد الطغيان فاليقدم لنا شيئا يجعلنا نتفهم طغيانه ونضحك به على أنفسنا ! .. كان صقر قريش العظيم يتخذ من البطش وسيلة لقمع الفتن والقضاء على العصبية وتوحيد الدولة . وكان المنصور أبى عامر يبرر طغيانه بالإغارة على الإسبان وأعداء الإسلام فيحوز أموالهم وسباياهم ويغدقها على شعب الأندلس . . أما هذا فما هى إمارات طغيانه !! .. أكلما ضعف الحاكم زاد من التكلف ورسوم الملك حتى يوهم الناس بعظمة ناموس ينخره الوهن ؟ .

كثيرا ما لعبا أحمد وحسن فى أيام الطفولة وتبارزا بسيوف من خشب . كانا يشكلان خيولا من صلصال ويلهوان بها مع الليالى والأيام والأحلام . . كل واحد يتخيل نفسه و قد كبر فجأة وركب الحصان وصار بطل من الفرسان .

وتدور الأيام ويكبر أصدقاء الطفولة . ويتحول الصلصال إلى حصان حى . والسيف الخشب الصغير إلى سيف قاطع من حديد .. ولكن اختلف المعسكر وصار فسطاطان .. وانقسم الإخوة .. أحمد يقود فرقة **" المهدى "** وحسن زعيما **" للمجاهدين "** .

بدأت المظاهرة سلمية يقودها حسن تطالب الخليفة بالإصلاح . وتدخل أحمد ليحشد أتباعه ويضربون الناس بالطوب والحجارة . وما هى إلا لحظات حتى شهدت الأندلس أقوى حوادث العنف فى تاريخها .. أبناء الوطن الواحد يذبحون بعض فى الشوارع .. وكل فريق يدعى أنه الحق والآخر هو الباطل . . الغبار يملأ الجو والدم يزحف ع الدروب .

رجب المجذوب يقفز إلى أعلى بثيابه المهلهلة وشعره الأبيض الأشعث .. يضحك بسخرية ويصيح ...

- الباطل يأكل بعضه .. الباطل يأكل بعضه ..

- كل يكره غيره .. حقدا وبغضا وغيره
- كل يكره غيره .. حقدا وبغضا وغيره

رجال الشرطة انسحبوا من الشوارع كأنهم يتيحون الفرصة للشعب لإفناء نفسه بنفسه .. الجيش أيضا لا يتدخل . يدعى حماية الحدود , لكننا لا نراه فى البلد ولا نستشعره على الحدود !! ... قاعدة الجيش صارت عند قصر الخليفة يحيطون بالعاهل الكريم ليحموه من جماهيره وأمته .

الكل يركب خيله ويشهر سلاحه فى وجه أخيه . لكن شتان بين " راكب الحصان " و " الفارس " .. تساقط الفرسان عن سروجهم وأعلنت دولة الخصيان .. جميعهم قد ذبحوا شرفهم وارتهنوا سيوفهم وقدموا نساءهم هدية لطاغية الزمان .. !!! .

لـم يبـق فـى دفـاتر التـاريخ لا سـيف ولا حصـان .. جمـيعهم كبريـائهم مـدجن , إسـلامهم مـروض , أميـرهم منـافق مـزدوج ... يـا أمـة العـرب . أيـن القـرآن !؟ . . هـل يمكـن أن يعقـد الإنسان صلحا دائما مع الهوان ! .

انهـم يمسـخون دولـة الإسـلام بإسـم الثـورة والإيمـان .. أرادوا الـذكور نسـخة مـن النسـاء وأرادوا النساء نسخة من الذكور .. يطبخون الشعر للخليفة ويشترون لـه فاكهـة الفكر .. كأننـا فى جاهلية ثانية تمكنت منا , بل هذه أشد قتامـا مـن تلـك , فتلـك كانـت علـى جهـل بشـريعة الله وهديه . أما هذه فإنكار لها بعد علم بها . والإنكار هنا هو البعد عن منهجه عز وجل أو تأويلـه بحسب المطامح والمطامع .

كان أحمد يركب حصان أسود . وحسن فوق حصان أبيض .. وفـى زخـم المعركـة الشـعبية فوجـىء الزعيمان – أصدقاء زمان – بوجههما لوجه بعض . نظـرا فـى عيـون بعضـهما وكـأن كل منهم يراجع ضميره ثم حملا علـى بعضـهما بالسـيف والجبين العـابس .. وكلاهمـا – رغم المجابهة – كان يتذكر السيف الخشـب أيـام الطفولـة والمبـارزة الضـاحكة . وكأنـه شـريط مـن الذكريات يمر بهما .

نجحت السلطة والشهوة والسلطان أن تفرق بين الأشقاء وترتـدى قفـازا مـن حريـر يحـرك الجميع من خلف الستائر والحجب الكثيفة بإسم المبادىء والحريـة والعدالـة . وبـدلا مـن توحيـد الشـباب فـى التنميـة أو حشـدهم لعـدو الخـارج , تـم اسـتنزافهم " ببراعـة ! " فـى معـارك الـداخل .. وفـى لحظـة واحـدة استشـعرا – أحمـد وحسـن – الإنهـاك بعـد أن جرحـا بعضـهما وسالت الدماء من سواعدهم وأكتافهم . فيمما وجه جيادهما نحو الإفتراق والهرب .

(3)

سمعت شمس بما جرى لحبيبها أحمد ليلـة أمـس فـى معـارك قرطبـة , فأسـرعت نحـو بيـت الشيخ ريحان تدق الأبواب بعنف حتى تطمئن علـى تـوأم روحهـا . . فتح لهـا أبـوه فدفعتـه عن دون قصد وهى تجرى نحو غرفة أحمد يتبعها الشيخ ريحان .

- **شمس** : أحمد .. حبيبى .. ماذا حدث لك ؟ .. سمعت انك دخلت حارتنا وأنت ملقى على ظهر جوادك تنزف دما !! .

- **أحمد** (مستلقى على سريره - صوته واهن) : حسن كـاد يقتلنـى .. لكنـى سـوف انـتقم منه ومن كل أتباعه .

- **الشيخ ريحان** : ألم أوصيك بنفسك قبل أن تخرج لمؤاذرة الخليفة ؟

- **أحمد** : لم نكن ندبر لهذه الحرب الشعبية . ولكن الموضوع خرج عن سيطرتنا جميعا . ان نقطة الدم إذا سفحت سالت بعدها بحور الدماء .

- **شمس** : عمى ريحان .. هل كنت تعلم بأنه خرج لضرب المجاهدين . . يالا صدمتى فيك يا عماه .. كيف تشجع ابنك أن يهاجم ابناء وطنه وكل ذنبهم أن طالبوا بالإصلاح .

- **أحمد** : لا تظلمين أبى يا شمس . كنا سوف نرد المظاهرة السلمية بأخرى سلمية . ولكن الأمور تطورت كما قلت .

- **شمس** : لا يا أحمد انك تكذب على .. لقد عرفت فى سياق الحوادث انك كونت فى سرية فرقة تسمى نفسها " فرقة المهدى المنتظر " وسلحتها ودربت شبابها واشتريت الخيول والسيوف .. اذن انك بيت الأمر للدم !! . . من أين أتيت بكل تلك الأموال التى جهزت بها رجالك ؟؟؟ .

- **أحمد** (نظر إلى أباه وكأنه يستأذنه فى الإفصاح عن السر) : مولانا أمير المؤمنين قد أمر لنا بأموال للإنفاق على حملات تأييده , وأموال أخرى لى ولأبى .. وحينما تصل إليه أنباء بسالتى لن يتردد فى ضمى إلى حرسه الخاص وفرسانه وتنفتح لنا أبواب المجد . وسوف تكونين معى يا شمس الشموس فى هذا المستقبل الزاهى بالزهراء .

- **شمس** : انك اذن تحارب أبناء وطنك نظير الرشوة والمال والوعود .. لا يشرفنى أن أكون معك فى مستقبل بنيت أركانه فوق أنين جرحاك .

- **أحمد** : كلا يا شمس . أنا لا أدافع عن الخليفة نظير رشوة بل نظير مبدأ .

- **شمس** : وما المبدأ الذى يخولك أن تشهر سيفك فى وجه " حسن " .. هل تذكر ألعابنا فى الماضى .. ؟ .. هل تذكر حين أنقذك حسن من الغرق منذ أعوام .. ؟ .. هل تذكر صوت السواقى التى عدونا حولها فى طفولتنا . أنا وأنت وحسن .. أين كل ذلك !! . . وأنا بالطبع لا أبرأ حسن أن يرفع سيفه فى وجهك - فكلاكما قد تناسيتم حديث رسولنا الكريم **"" اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ""** .

- **أحمد** : مبدأى أن المهدى يعمل ليل نهار لصالح الأمة لكنهم ينكرون الجميل ولا يريدون للبلاد أن تستقر , بل يريدون حلقات لا تنتهى من حمى الثورة حتى يدعى كل مارق البطولة والزيف . . أما بلغك أن أمير المؤمنين – أعزه الله – قد قبض على محتكرى الفول والقمح والزيت وغيرها من السلع وسلمهم لمهران ليستوفى أموالهم .

- **شمس** : انك والله لتعس أيها الشقى . . أمير المؤمنين قبض على المحتكرين لكنه لم يحاصر الإحتكار . بل أودع التجار من أصحاب شنجول السجن واستبدلهم بأصحابه هو وخاصته . ولا يزال رجال الخليفة يفرضون الأتاوات على الناس ويشاركون الأعيان فى مزارعهم وتجارتهم نظير حمايتهم - تماما كما كان يفعل النظام القديم .

استأنفت شمس حديثها ..

- أسمع يا أحمد إما أن تفارق أعمال العنف وفض التظاهرات بمثلها لصالح الخليفة وأعوانه , أو فراق بيننا إلى الأبد ...

- **أحمد** : أستطيع أن أساند أمير المؤمنين دون عنف .

- **شمس** : هيهات يا حبيبى .. طول ما أنت بينهم إيديك حتغرق بالدم ..

- **الشيخ ريحان** : أحمد لا يستطيع أن يتخلى عن مولاه الخليفة . طريق السلطان لا ندخله برضانا ولا نتركه برضانا .. وطالما أمر الخليفة بأن نكون من تبعه وأشياعه فلا خيار لنا بعد ذلك , إما أن يكون السيف لنا أو علينا . وإذا استعظمنا الثمن ورجونا أن نعود أدراجنا لا لنا ولا علينا . أبى الآخرون علينا ذلك , فإذا بالدم الذى أرادنا تجنبه قد صار دماءا , فلا نحن نجونا ولا نجت الدولة ولا نجت الرعية .

- **شمس** : سحقاااا للسلطان إذن الذى يسلبنا راحة البال .. أنظر كيف تغير وجه أحمد فى غضون أسابيع قليلة . أنظر إلى عينيه لترى شعاع الحب وقد تحول إلى نظرة ميتة من عيون زجاج لا إحساس فيها . هل تلاحظ صفحة وجهه الصافية وقد تبدلت إلى خلجات متشنجة . . لا والله لقد اخترتم طريقكم ولم تجبروا على شىء . اخترتم الزهراء ونسيتم قرطبة وأهاليكم والأندلس كلها . . وأنا أيضا اخترت فراقا إلى الأبد .

- **أحمد** (جذب شمس من يدها قبل أن تفارقه) : لا يا شمس . سوف أعود إليكم . لن أغضبك أو أغضب أهلى وناسى , فأنا لا استطيع العيش دونك . سوف نرد ما تبقى من مال إلى قصر الخلافة وكفانا الله شر القتال .

- **الشيخ ريحان** : لن تفعل شيئا من هذا يا بنى . لقد خبرتك فقط بوعد الخليفة ولم أخبرك بوعيده .. حدثتك عن ذهبه ولم أحدثك عن سيفه .

- **أحمد** : ماذا تعنى يا أبى ؟ .

- **الشيخ ريحان** : لقد هددنى أمير المؤمنين إن لم ندعمه بأن يقتلك ويحرق الوكالة !! .. سوف نموت أنا وأمك وأخوتك كمدا عليك إذا ضربت عنقك . . لقد حملت هذا الوعيد فى صدرى ولم أبح به لأننى كلما أبصرت طيبتك ونقاء سريرتك ورهانك على أمل " المهدى المنتظر " عز على أن أقتل الأمل فى فؤادك . وحين جاء إغراء أمير المؤمنين بضمان مستقبلك أنت وشمس وذريتكما شعرت أن خير الخليفة وإن لم يصب الأندلس سوف يصيبكم أنتم , وكان فى ذلك عزائى فشجعتك على مؤاذرته .

- **أحمد** : يقتلنى ؟ .. بعد كل ذلك !! .. يهدد بقتلى وإحراق الوكالة التى نعيش على زرقها .. انه بذلك لا يقتلنى وحدى بل يحكم على أسرتى كلها بالإعدام .. أمى وأخواتى وأنت يا أبى .

- **الشيخ ريحان** : هل علمت أن طريق السلطان لا ندخله برضانا أو نتركه برضانا ؟ .

- **شمس** : إذن .. فالهرب يا عماه .. بلاد الله واسعة .

- **الشيخ ريحان** : كيف أنقل أهلى وتجارتى إلى بلد آخر ؟ .. وإن حاولت المجازفة فإن عيون كبير البصاصين مهران الصقلبى سوف تجهض هذه المجازفة . وعند إذ سوف نشوى جميعا أحياء !! .

(4)

فى بلاد الباشكنش ينعقد اجتماع موسع يضم ملوك الإسبان أعداء مسلمى الأندلس ...

- الملك سانشو : ملك نبارة
- الملك جارسية : ملك قشتالة
- الملك شارل : ملك ليون
- الملك أوردونيو : ملك أوستورياس
- الملك مالقة : ملك جيليقية

يفتتح الملك سانشو الإجتماع مهنئا أصحاب الجلالة بالإنجاز المرحلى الذى حققوه فى بلاد المسلمين . فقد تمكنوا من اختراق صفوفهم والعبث بمقدراتهم ..

- **الملك سانشو** : فيما مضى كنا متناحرين وكان العرب متماسكين والآن قد انقلب الوضع . الإسبان يزدادون وحدة وتماسكا والمسلمين يزدادون شرزمة وضعفا . ان ما يراق الآن من دماء المسلمين يفوق ما كان يسفك بيننا وبينهم فى عدوانهم علينا .. والسبب يا سادة يكمن فى سحر المال الذى عرفنا كيف نغريهم به ونضرب سلطتهم بعضها ببعض . . إن أحدا من عواهل الأندلس لا يكلف نفسه الجهاد فى سبيل الله وتحمل مسئولية أمته بالأمانة والصدق . فقد رحل جيل الأقوياء مثل " الداخل " و " الناصر " و " أبى عامر " وحل جيل من المترفين الذين لا يستمعون إلا لرنين الذهب وآهات الجوارى فى مخادهم - وهن لنا عيون .

- **الملك جارسية** : أننى أتعهد بدفع المال والهدايا وصناديق الخمر المعتق والجوارى الحسان والخيول المطهمة إلى الخليفة لكى يغض الطرف عن الأمير المستكفى وينشغل فى هدايانا ونساءنا الجميلات , فنقوى بذلك عدو للخلافة من بيتها يقوض ملك المسلمين فى حرب ضروس مرتقبة .

- **الملك شارل** : وأنا كما تعلمون أدفع المال الجزيل للأمير المستكفى فى طليطلة حتى يجند الأجناد ويزيد من تحصينها .. والمستكفى لا يدخر وسعا فى دفع الرشاوى إلى " جؤذر " قائد الخلافة حتى يكون عينه فى الجيش ويخزل قرار المهدى بمبادرة الهجوم على طليطلة بل انه من آن لآخر يدعو جنده إلى العصيان طلبا لمرتباتهم المتأخرة .

- **الملك أوردونيو** : وأنا لازلت مستمر فى تمويل " تنظيم الذلفاء " فقد أضحوا طابور استخبارات لنا منذ نجاح انتفاضتهم ضد شنجول , وامتلكوا خبرة الحشد والسيطرة على الشارع والتخفى . وهم ساعدنا المكين بين الأهالى . منهم شيوخ الطوائف والتجار والأعيان ومنهم نساء أشبه بالأفاعى يختبئن داخل قصور الأمراء والوزراء وينقلون لنا ما خفى , ويحركون لنا القرارات قبل اصدارها .

- **الملك مالقة** : ومن حسن الحظ أن مهران الصقلبى وفائق المحتسب قد كفونا مؤنتهم , فهم يأخذون أموالهم من الأهالى بزيادة الضرائب والمكوس وجلد الممتنعين أو شنقهم . والخليفة يفتعل الصمم والبكم والعمى لأنهم يقاسموه نهبهم وهو يشركهم فى سلطته . . ومن المثير للسخرية أن هؤلاء المسئولين فى أحيان كثيرة يدمرون أنفسهم دون أن نطلب منهم ذلك . . هل سمعتم يا أصحاب الجلالة بفكرة **" الفزاعة "** التى عرضها مهران الصقلبى على الخليفة ؟ .

يرد الجميع ...

- كلا لم نسمع بها ..

- **الملك مالقة** : عرض مهران الصقلبى على محمد المهدى أن يجلب له من عدوة المغرب مجموعة من المتطرفين المتشددين فى الدين ليرهبون أهل الأندلس ويرمونهم بالكفر والبعد عن شرع الله .. هذه المجموعة هى فرع من فرق " الإسماعيلية " الذين يروعون المشرق , وزعيمهم يدعى " جمال الدين الخرمى " . وقد نزلت هذه الجموع بالفعل إلى ديار الأندلس وبدأت عملها المتعصب ضد الناس .. يرهبون المسيحيين ويحرقون معابد اليهود ويسرقون محلات المسلمين . بل و يتهمون الخليفة نفسه بالكفر .

- **الملك سانشو** : وماذا يستفيد مهران أو الخليفة حين يتهم المتطرفين مجتمع الأندلس بالكفر ؟ .

- **الملك مالقة** : حينما اشتد السخط بين الناس نتيجة خيبة آمالهم فى الخليفة . وجد مهران أن الحل فى **" فزاعة التطرف "** . لأنه أوعز لجمال الدين الخرمى أن يطالب بالحكم – بعلم الخليفة والإتفاق معه – وفى هذه الحال سوف تفضل الرعية خليفة فوضوى على همجى بربرى يكفرهم ويستحل سبى نساءهم .. أما المسيحيين واليهود فسوف يسارعون بالإنضمام تحت لواء المهدى , لأن جمال الدين الخرمى بدأ يتوعدهم بإخراجهم عن ديارهم وطردهم من الأندلس فى دعاوى للتكفير والهجرة . . والغريب أن عدد كبير من شباب الأندلس تحت ضغط الفقر والقمع والفوضى تحولوا إلى العنف وأنضموا إلى دعوة جمال الدين وبدأوا يصفونه بـ **" الرجل النورانى ! "** .. أما أتباع هذا " النورانى ! " فهم مجموعة من الملثمين بالسواد يفاجأون الجميع فى لحظة واحدة بعميلة اختطاف أو قتل أو سطو مسلح ثم يختفون فى نفس اللحظة . دون أن تحرك الشرطة ساكنا للقبض عليهم . فالشرطة مشغولة فقط فى مقاومة المحتجين والمطالبين بالإصلاح .

- **الملك جارسية** : مهران الصقلبى – رئيس الشرطة كبير البصاصين – متآمر مبهر الذكاء .. انه من نوعية الرجال التى نتمنى أن تكون معنا لا علينا .

- **الملك أوردونيو** : تركيبة مهران الشخصية كرجل شرطة وإستخبارات تجعله يخلص دائما للسلطة الشرعية لولى الأمر أيا ما كان الجالس على العرش . وهو يرفض مراسلتنا له أو طلب أى عون منا – كما يفعل غيره – حتى أمواله الكثيرة لا يحصلها منا بل من العامة عن طريق القهر والسجن والجلد . أى أن مصالحه كلها تدور فى دائرة " داخلية ! " .

- **الملك شارل** : لكن من الغريب أن كهرمانة – رئيسة الحرملك – هى الوحيدة التى تخدمنا تطوعا ودون جزاء منا . فهى تثأر لحبيبها المقتول " شنجول " وتتلذذ بهلاك الخليفة يوما عن يوم . . وهى أيضا تثأر لتعذيبها فى المطبق على يد مهران فور أن تولى محمد المهدى . . مسكين الرجل الذى يسلم مقاديره لمرأة ساحرة وبالخصوص إذا كانت تكرهه ! .

- **الملك شانشو** : وماذا سنفعل إزاء فرقة الإسماعيلية المتطرفة بقيادة هذا " الخرمى " , إن عنفهم كفيل بحشد الناس وراء أمير المؤمنين وتضيع جهودنا سدى .. يجب أن نتحرك سريعا نحو التقسيم وليس الوحدة .

- **الملك شارل** : لن تستطيع فرقة الإسماعيلية أن ترأب الصدع فى سمعة الخليفة لأننا سوف نستبق الجميع بسهمنا فى طليطلة ! .

- **الملك جارسية** : تعنى الأمير المستكفى ؟ .

- **الملك شارل** : أجل يا صاحب الجلالة .. قد أوشكت عدته على الإكتمال ونضجت آلته العسكرية . ولسوف نعطيه قريبا إشارة البدء فى إعلان الخلافة لنفسه ومحاربة المهدى .

- 5 -

جنة الخوف

الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : " أنا الشر وأبى الظلم وأمى الإساءة , وأخى الغدر , وأختى المسكنة , وعمى الضر , وابنى الفقر , وبنتى البطالة , وعشيرتى الجهالة , ووطنى الخراب , أما دينى وشرفى وحياتى فالمال . المال . المال " .

ان الشعب أسير الإستبداد يرث شر الخصال ويتربى على أشدها , فتارة يتهم الخالق والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئا . وتارة يتهم تربيته وتارة والديه وقومه ووطنه وزمانه . والحقيقة بعيدة عن كل ذلك . وما الحقيقة غير أنه خلق حرا فأسر . ويبقى طول عمره جاهلا .. أين الخلل ؟ .. والخلل هو فى انه يعيش تحت نظام مستبد .

الاستبداد السياسى متولد من الاستبداد الدينى , والبعض يقول إن لم يكن هناك توليد فهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان , فالدين أقوى تأثيرا من السياسة إصلاحا أو إفسادا .

.

عبد الرحمن الكواكبى

(1)

كانت كهرمانة تركب فوق جمل بهودج كبير يعبر أسواق قرطبة ومتنزهاتها وشوارعها ترافقها وصيفتها " دلال " - يحيط الحراس بالهودج على أربع خيول فيبعث الموكب على المهابة والجاذبية . وكان مجرد الناظر إلى الجمل الشامخ المغطى بشيلان من حرير يدرك من الوهلة الأولى أن الراكب من قصر الخلافة .. وبالتحديد من الحرملك .

فالحرملك الخلافى حرسه يحلقون رؤوسهم تماما بالشفرة الحادة ويرتدون ملابس زاهية يتداخل فيها اللون الأحمر مع الأزرق . ويتمنطقون بسيوف حادة معكوفة .

- **دلال** : لقد سرقنا الوقت فى شوارع قرطبة يا سيدتى أما آن وقت الرجوع إلى الزهراء .

- **كرهمانة** : ليس قبل أن أجد لمولانا الخليفة ما يسرى عنه . لقد لاحظته مهموما من كثرة المشاكل التى تحيط بدولته .

- **دلال** : ولهذا يحبك أميرك المؤمنين يا سيدتى . انك تعرفين دواخل نفسه دون أن يبوح بها . فسلبتى عليه لبه .

- **كهرمانة** : العواهل مثل الذئاب الشرسة إن لم تطعميها أولا بأول أكلوك . وأنا لست بالفتاة الساذجة بل أنى خبيرة بأطوار الرجال وتقلباتهم .

دخل الجمل إلى " قبة الورد " وبعد قليل أشاحت كهرمانة بيدها ستارة الحرير التى تغطى الهودج ونظرت منه بعيناها الثاقبتان وكأنها ثعبان يبحث عن فريسته .. يغطى وجهها يشمك ليضاعف من حدة العينين ... ووجد الثعبان فريسته فى شمس ...

كانت شمس تقف تحت شجرة الحب فى انتظار أحمد ولكنه تأخر عليها . كان القلق يبدو عليها حين تهادى الجمل المحاط بالفرسان تأمرهم كرهمانة بالسير نحو هذه الفتاة البيضاء ذات الشعر الذهبى .

بمجرد أن أقترب الجمل من شمس حتى أناخ عندها ...

- **كهرمانة** (من داخل الهودج وبجوارها دلال) : أقتربى أيتها الفتاة .. ما الذى يوقفك وحدك فى قبة الورد - أما تعلمين أن المجرمين يملأون قرطبة وقد يعتدى عليكى أحدهم ؟ .

قبل أن تجيب شمس سبقتها كهرمانة إلى الكلام ...

- **كهرمانة** : يبدو انك تنتظرين حبيبك .. انه قاس القلب .. كيف يترك هذا البدر المطل ينتظر وحده فى هذه الجنة المخيفة . . الأندلس كلها جنة الله فى أرضه ولكنها صارت مخيفة

ومفزعة , يملأها المجرمين والمتطرفين والإنتهازيين دون أثر لأمن أو لشرطة . وإن ظهرت الشرطة فإنها تضرب المظلوم وتقتل القتيل ... ألا ترين ذلك ؟؟ .

- **شمس** : العفو يا سيدتى ولكنى لا أتكلم فى السياسة ولا أفهم فيها ..

- **كهرمانة** : خيرا فعلتى .. لم أكن استدرجك .. فقط أردت التعرف على عقلك ونظرتك للأمور .. أنصحك بالرحيل فقد انكسرت شمس العصر . وسوف أرسل معك أحد الفرسان إلى منزلك على سبيل الحماية .

- **شمس** : أشكرك يا سيدتى .

- **كهرمانة** : ما اسمك أيتها الجميلة البريئة ؟ .

- **شمس** : اسمى شمس .

- **كهرمانة** : بنت مين يا شمس ؟ .

- **شمس** : بنت عدوى تاجر العطور .

.....
.....

وصل أحمد إلى قبة الورد متأخرا بعد أن رحل الجميع . أما كهرمانة فقد أمرت أحد الحراس بتوصيل شمس إلى بيتها وأوصته أن يحفظ مكان البيت وأن يجمع بعض المعلومات عن تلك الفتاة .

بعد يومان جاء الجند ليتقبضوا على شمس وبين طرفة عين وانتباهتها وجدت نفسها فى حرملك الزهراء .. دفع بها الحراس أصحاب " الصلعة " إلى غرفة واسعة مبطنة بالقطيفة الفاخرة فإذ عيناها فى عين كهرمانة .

- **شمس** (فى فزع) : لماذا أنا هنا .. ؟

- **كهرمانة** : ألا تتذكرينى يا شمس ؟ .

- **شمس** ((استعجبت لمعرفة اسمها ولكنها تذكرت السيدة صاحبة العينان الحادتان – انها هنا بدون يشمك)) : انتى صاحبة الجمل فى قبة الورد .

- **كهرمانة** : كنت متأكدة انك ذكية ففارستى لا تخيب حين أشرع فى تقديم فتاة لمولانا أمير المؤمنين .

- **شمس** (لم تفهم شيئا) : أكرر سؤالى .. لماذا أنا هنا ؟ .

- **كهرمانة** : أولا أعرفك بنفسى .. أنا مولاتك كهرمانة رئيسة الحرملك الخلافى . وأنت منذ الآن محظية أمير المؤمنين – أعزه الله ونصره على أعداءه .. وهذه هى الزهراء مدينة الخلافة ومقر الحكم .

جرت شمس فى فزع نحو الباب كأنها هريرة تأكدت من هلاكها فأمسكت بها جاريتان حبشيتان قويتان البنية والعضلات .

- **كهرمانة** (تصيح فى الحبشيات) : خذوها إلى حجرتها وألبسوها ثياب مثيرة تظهر أكثر مما تستر .. أريد الليلة أن أقدمها إلى أمير المؤمنين – حفظه الله .

(2)

يجتمع أهل الحارة فى منزل عم عدوى ليواسوه . فقد اختفت ابنته " شمس " أجمل بنات الأندلس .. بل إن أحمد كان يعتبرها هى نفسها " الأندلس " ... ! .

صوت **رجب المجذوب** فى الشوارع .. يمشى ويصيح ويبكى ... وكأنه ينادى على شمس ....

- أين انتى يا أندلس .. أغتصبوكى يا مدينة الجمال والسلام .. فقل على الدنيا السلام .

انها أول مرة يبكى رجب المجذوب .. شاهده الناس كثيرا وهو يضحك أو يسخر , حتى حين حدثت الحرب بين أهالى قرطبة .. كان يضحك ويصيح قائلا ....

- الباطل يأكل بعضه

لكنها المرة الأولى التى يشاهده فيها الناس وهو يبكى . . ظل يردد ...

- أين انتى يا أندلس .. أغتصبوكى يا مدينة الجمال والسلام .. فق على الدنيا السلام .

دخل أحمد إلى بيت عم عدوى وهو يحمل مشعلا بعد أن بحث عنها طول الليل .. قيل له أن الجند قد قبضوا عليها .. سأل عنها فى مخافر الشرطة وسجن المطبق .. بل والمستشفيات " البماريستانات " ...

الجميع يسألون أنفسهم .. لماذا قبضوا على شمس .. أإلى هذا الحد يبلغ الطغيان ؟ .. أن يسحل الشمس فى سنابك خيوله .. أن يكتم نورها فى ملابسه المقصبة !! .. يريد الطاغية أن يضىء بالشمس حياته وحده - ويطفئها علينا جميعا .. أن يدفىء لياليه وحده - ويترك لنا السقيعا .

يبكى عم عدوى وزوجته ... فى كل نصف ساعة يدخل أحد شباب الحارة الذين تطوعوا للبحث عن شمس ... انه حسن الحداد .. وهذا رودميرو .. وذاك جهاد ... كلهم يعلنون بالصمت وحيرة العيون عن فشلهم .. .. وضاعت الشمس فى غياهب الطغيان .

(3)

فى غرفة الخليفة الواسعة يجلس أمير المؤمنين على أريكة كبيرة ناعمة وأمامه مائدة عليها ما لذ وطاب من فاكهة وشراب .. انه ينتظر الفريسة الجديدة التى وعدته بها كهرمانة ..

يدخل الأغوات وفى يدهم شمس الشموس , علموها أن تركع لأمير المؤمنين ولا تقف أو ترفع رأسها عن الأرض حتى يأذن لها .. ألبسوها ثيابا حريرية فضفاضة ولكنها عارية عند الأكتاف والصدر والأفخاذ . صممت فى مشهدها وملمسها لكى تثير حتى الأتقياء فما بالكم بطاغية فاجر !!! ..

ضربها الحبشيات بأوامر من كرهمانة وتوصيات بألا تظهر الكدمات فى جسدها حتى يظل جسمها على جماله " لسيدنا ! " أمير المؤمنين .. .. أشار محمد المهدى للأغوات بأن يغادروا , فرحلوا وتركوا الهريرة بين براثن هذا النمر . فألتف الخليفة من حولها كالوحش الذى يتدبر فريسته قبل أن يلتهمها .

براءة وجهها الطفولى لم تثيره كما توقعت كهرمانة ولكنه استشعر نحوها كثير من العاطفة , وبالخصوص حين لمح طلتها ذات الصبح وشفتاها المبتلة بينابيع من ريقها الوردى المتدفقة إلى ثغرها المرتعش المندهش .

لقد أغتصب امرأة من قبل منذ بضع سنوات قبل أن يولى أمر المسلمين ! , كان كالنمر الذى يهاجم وعلا شاردا .. لكن يفجأنا " علماء الحيوان " بظاهرة غريبة مفداها أن النمور كثيرا ما تعاف مهاجمة الغزلان الصغيرات بل تحنو عليها !!! . . وهذا ما حدث مع محمد المهدى .

بكت الشمس وصارحته بأنها اختطفت من بين أهلها بواسطة الجند .. وأنها ترجوه – وهو أمير المؤمنين أن يعيدها إلى بيتها وذويها ...

- **شمس** : ألم تقل يا مولاى فى صدر خلافتك أنه لو احتاج إليك خائف ما عليه إلا أن ينادى ويقول **""" واااا مهدياه """** ... ها أنا ذا أناديك **""" واااا مهدياه """** ...

- **الخليفة** : لا أستطيع أن أرجعك إلى أهلك وإلا حكيت ما حدث لك فيثتثار العامة . فالناس تغار على الأعراض غيرتهم على دينهم وأوطانهم . . لكنى أعدك بألا أمسسك بسوء أو يمسسك أحدا هنا بسوء . وأن تنعمين بكل ما فى الزهراء من ترف وبهجة .

- **شمس** : أنا لا أريد بهجة الزهراء . فهى كالأندلس " جنة مخيفة ومفزعة " !! .. وأعدك بألا أحدث أحد عن اختطافى . وأن أدعى سببا آخر لغيابى .

- **الخليفة** : أنتهى الأمر أيتها الفتاة .. ما اسمك ؟ .

- **شمس** : شمس .. اسمى شمس .

- **الخليفة** : اسمك جميل .. ابنة من يا شمس ؟

- **شمس** : بنت عدوى تاجر العطور فى سوق قرطبة .

استعجب محمد المهدى .. كم الدنيا صغيرة .. انه يعرف أبوها منذ أن كان وعدوى يجلسان فى وكالة الشيخ ريحان يتحدثان بالسخط عن حكم شنجول .. اذن انها شمس حبيبة أحمد ريحان قائد حملات تأييد الخليفة وفرق **" المهدى المنتظر ! "** , وقد وعد بأن يزوجها لحبيبها من مال الخلافة .

... لكنه لم يصارح شمس بمعرفته لأبيها أو خطيبها , واكتفى بأن أجلسها على أريكته الفاخرة وقال لها ...

- **الخليفة** : حدثينى عن قرطبة .. لقد أوحشتنى مخالطة العامة والدهماء .

- **شمس** : قرطبة تجلس على رصيف الفوضى والجوع .. والصبر .. لم تعد النجوم تسبح فى النهر .. يدعو لك الخطباء فى المساجد ويرى الناس اسمك على النقود والنقوش وفوق الرايات والبيارق لكنهم لا يرون لك أثرا من إنجاز بعد ذلك .. فالفقر على حاله و سماء السلطة تمطر العنف والإرهاب والجهل . ورغم ذلك أوشك الشعراء فى الميادين والمنادين على البغال أن يطلبون من الرعية أن تعبدك ! .

- **الخليفة** : تكلمى .. لماذا سكتى ... ؟

- **شمس** : لقد تجاوزت يا سيدنا أمير المؤمنين .

- **الخليفة** (مبتسما) : حقاا .. لقد تجاوزتى .. ولكنى أريدك أن تتجاوزى . أنهم هنا فى الزهراء يحجبون عنى الحقائق .. حتى كبير البصاصين لا يقل لى كل الحقيقة .. .. استأنفى ما تودين قوله ولا تخشى شيئا - لن أضرب عنقك .

- **شمس** : الشوارع تعج بالأعرج والأبرص والأعمى والمجاذيب والشحاذين .. رجالك يصلبون الرعية فوق الشجر . يرغمون الناس أن يعيشوا كالبقر ويموتوا كالبقر .. انك يا سيدنا تمشى على المعذبين كما تمشى على سجاد قصرك وكأنك عثرت على الشعب بين

أوراق جدودك .. كل شيء فى بلادنا قد شاخ إلا جهاز القمع فهو لا يشيخ وقد جعل منك المهدى والواحد والخالد بين جميع الكائنات .

- ... أما التجار ورجال المال والأعمال فقد نصبوا لتجارتك معرضا ومسرحاا كبيرا .. واحد ينفخ نايا .. واحد يضرب طبلا .. واحد يمسح جوخا .. واحد يمسح نعلا .. علموك أن ترى نفسك إلها وأن ترى الشعب رملا .

- ... أهذا أمانكم يا أمير المؤمنين ؟ .. أهذا أمانكم أيها الخلفاء الأتقياء الأنقياء !! .. أم هى سنن الأولين تجرى عليكم كما جرت على غيركم . أولها دعوة وآخرها ملك وسلطان وغنيمة .

- **الخليفة** : كفى يا شمس . لقد استعملتى معى سيفا لم يستعمله غيرك من قبل .. انك تيقظين ضميرى الذى أرخيت له العناس منذ سنوات ...

- **شمس** : ولما يا أمير المؤمنين أرخيت النعاس لضميرك ؟ . فإن تجرد الحاكم من الإنسان لا يبق له من صفة البشر إلا الرسم .

- **الخليفة** : كنت صغيرا حين أعتقل الديكتاتور المنصور بن أبى عامر كل أهلى . أجهض العسكر حلمنا فى إقامة الدولة الدينية على الحق والعدل .. عذبوا أمراءنا وشنقوا آباءنا واختلسوا أموالنا . . وحين كبرت وكبر جيلى من شباب الأمويين فإن ثأرنا الأكبر كان مع العامريين العسكر , وثأرنا الثانى كان مع الأندلسيين الذين هتفوا لهؤلاء العسكر ودعموا حكمهم .. والآن فقد ارتقينا السلطة محملين بثقافة السجن والإعتقال والعذاب . لماذا إذن تستكثرون علينا أن نكون ظالمين . وهل يورث الظلم إلا ظلما ؟ !! .. **كل مقهور يعيد سيرة جلاديه** - وهذه طبيعة الأشياء .

استأنف الخليفة ..

هل تظنين أن هذه الشعوب تحتاج فعلا إلى الخير والعدل . انهم يفعلون بأنفسهم أكثر مما يفعله بهم الغرباء . انهم يصنعون من الحاكم فى الصباح إلاها من العجوة ثم يأكلوه حين يأتى المساء .. والآن وبعد أن أحضرنا الدولة الدينية من غياهب السجون فإن أول مهامنا هى احتجان المال الذى احتبسه منا الحكم البائد . آن الأوان أن نرى العز الحقيقى بعد سنوات الفاقة والشنق . ولذا فإننى والأمير المستكفى وكل رجال النظام نسترق السمع لصوت الذهب حين يدفعه لنا الإسبان صاغرين وتدفعه لنا الرعية مرغمين .

- **شمس** : الإسبان لا يدفعون الذهب صاغرين وإنما يريدون أن تتراجع الأندلس من " دور " إلى " وظيفة " .. من **دور** يحمى العروبة ويصد الغزاة فى مغرب الأرض إلى **وظيفة** تقسيم وتفتيت تبدأ بالأندلس ثم تشمل أراضى الإسلام جميعها .

- **الخليفة** : ان براءة وجهك الصبوح الطفولى تحمل وراءها خبيرة بشئون السياسة والسلطان .

- **شمس** : انك يا مولاى وخطيبى أحمد وكهرمانة تقولون اننى اتحدث فى السياسة , وأنا أقسم فى كل مرة بأننى لا أفهم فيها أو فى شئونها .. لماذا حين يتكلم المرء عن شئون أمته " تتهموه " بالسياسة . أنا لا أفهم معنى هذه الكلمة المتكررة الملحة . ولكن ما أستشعره هو أن طريق الهلاك يبدأ بإستنشاق ريح الغرب والحنين لصوت ذهبهم . . وهو ما نراه جليا فى الأحداث - **الإسبان يدقون أبواب الغرب والصليبيين يدقون أبواب الشرق** .. ! .

- **الخليفة** : وماذا فعل خلفاء الشرق أكثر مما فعلت أنا هنا فى الغرب .. ماذا فعل الخليفة العباسى فى بغداد أو الخليفة الفاطمى فى مصر . إذا قيل انى خليفة ضعيف وليس لى من الأمر شيئا فهل لعواهل المشرق أكثر مما لى .. اسم .. مجرد اسم يعتاش على مجد قديم موروث وشرعيات كاذبة وتقليد ألفه الناس عبر العصور حتى صار عندهم ناموس من نواميس الطبيعة الثابتة وحسبوه جزءا من ميزان الشريعة .. بل من ميزان الكون .

- ... **دعينى أكشف لك عما يدور فى أغوار صدرى العميقة** .. عن الحقيقة المستورة فى ذلك المكان المنزوى البعيد الذى نخفيه بالحرس والحجب الكثيفة كى نخفيه عن الناس .. بل نخفيه عن أنفسنا .. ومع الزمن نصدق الخرافة التى أصطنعناها عن أنفسنا .. نحن الخلفاء ابناء الخلفاء . كى نعطى حكمنا قوة الشرع وحكم الدين , وحين نخلو إلى النساء والشراب والمعازف ننسى ذلك كله , كأنه قد رفعت عنا التكاليف .

- ... **فنحن من الدين مهما فعلنا** .. نحن سيف الله . فإذا قتلنا لم نسأل لما ؟ وفيما ؟ فقد قتل الله بنا .. وإذا حكمنا فقد حكم الله بنا .. ومن خالف حكمنا فقد خالف حكم الله .. نحن حجاب الخفاء ونور التجلى .. نحن من يصرف الله من خلالهم شئون الدنيا , فلا يخلو منا الكون إلا أن تقوم القيامة ويستدير الزمان على نهايته .

- ... **انظرى من حولك** .. هل كان الرسول العظيم يرضى أن يقيم فى قصر مثل هذا مع خدمه وجواريه وحشمه وحرمه وذهبه ؟؟ .. هل هذا ما سما به الأئمة الطاهرون والخلفاء الراشدون حتى أسكنهم الناس قلوبهم ؟؟ .. أم سموا بحفظ ناموس الشريعة ومناهضة الظالمين والإنتصار للمحرومين ... وإذن فقد استوى حالى أنا خليفة الأندلس الأموى مع خليفة بغداد العباسى وخليفة مصر الفاطمى .

- ... والآن أشعر بأننى قد أزحت جبلا ثقيلا من فوق قلبى المعتل .. انها لحظة كشف دونها كشف الصوفية .. أجدنى الآن خفيفا كنسمة ريح .

#

تمدد الخليفة فوق أريكته – قدم عليها وأخرى أسفلها – مستشعرا الراحة بين عيون تلك الصبية صاحبة الوجه البكر والنظرة الصافية . شمس هى الإنسانة الوحيدة التى لم يرى فى عينيها نظرات الزيف والتملق ودلع الغوانى على صاحب السلطان .. وانساب المهدى فى نوم عميق كانسياب ورقة شجر فى أحضان النسائم .

كانت شمس تنظر إليه وهو يغمض عيونه ويناااااام وتملكها إحساس بالشفقة على هذا العاهل الكبير الذى يرفعه أنصاره فوق مستوى البشر , حتى يكاد يشعر من يلتقيه أنه سوف يقابل رجلا نصفه بشر ونصفه إله !! ..

وكانت " دندنات " الطرب – لتسلية ولى الأمر – تتهادى من شرفة الموسيقى على الطرف المقابل لغرفة الخليفة بالحرملك لتصل إلى مسامع شمس فى هذا الليل البارد . . فيردد المطرب ...

آيا لكى نظرة أودت بقلبى .. وغادر سهمها قلبى جريحا
فليت أميرتى جادت بأخرى .. فكانت بعض ما ينكى الجروح
فإما أن يكون بها شفائى .. وإما أن أموت فأستريح

فمدت يداها الصغيرتان الرقيقتان إلى غطاء بأسفل الأريكة وغطت به محمد المهدى " الإنسان " السابح فى أحلامه وشجونه .

(4)

فى الصباح الباكر كان أمير المؤمنين يجلس بقاعة العرش ويطلب كهرمانة .. أسرعت نحوه وفى بالها أنه سوف يشكرها على " شمس " .. وقد يمنحها بضع ضياع ! .

- **كهرمانة** (تنحنى أمام العرش) : صباح شريف مولاى أمير المؤمنين .

- **الخليفة** (متهكما) : هه .. صباح شريف !! .. ومن أين يأتى الشرف وقد استهللت نهارى بك .

- **كهرمانة** : ماذا حدث يا سيدنا المهدى .. هل أخطأت محظيتكم شمس فى شىء .

- **الخليفة** : منذ متى ونحن نختطف الفتيات من أهاليهم ؟ . . تعلمين أن جوارى الخلافة وقيانها إنما نشتريهم من أسواق النخاسة أو يهدون إلينا من ملوك العالم وأمراء المقاطعات . . لكن أن نتردى إلى خطف البنات وقطف الفاكهة من فوق أشجار أصحابها ... انه والله آخر الزمان . هل أنا أميرا للمؤمنين أم تاجر رقيق يختطف العبيد والإماء !! .

- **كهرمانة** (عيونها فى الأرض) : لم نختطف إلا شمسا يا سيدنا المهدى وقد ظننت أنها تعجب عظمتكم فلم أتدبر الوسيلة . إذ أن " سعادة " أمير المؤمنين هى وظيفتى وهدفى المنشود . . وعلى كل الأحوال يستطيع مولاى يأمر بإرجاعها لأهلها .

- **الخليفة** : ومن يضمن لى ألا تتحدث لأهلها بأنها اختطفت بواسطة قصر الخلافة .. أتعلمين من تكون شمس ؟ .. انها خطيبة أحمد ريحان , أقوى مناصر لى بين جموع الشعب وقائد فرقة " المهدى المنتظر " التى تمولها الخلافة ... هل أرجعها إلى أهلها حتى يتحول

أنصارى إلى أعدائى ويثيرون العامة ضدى . ان الرعية تهتاج للأعراض مثل مهر قطع أعنته !! . فأكون قد أثرت الصديق واستنفرت العدو الساكن .

- **كهرمانة** : إذن يستطيع أمير المؤمنين أن يقتلها - دون حس أو خبر ! .

- **الخليفة** (ينظر لكهرمانة بتقزز) : لقد قتلت امرأة منذ سنوات بعد أن أغتصبتها .. لا يزال صوتها يرن فى آذانى حتى الآن وهى تستعطفنى وتتوسل .. شبحها يطاردنى أثناء الليل من آن لآخر ويعتصر ضميرى الذى أغرقه فى الخمر كل مساء . . هل تريدين أن تخلقين لى فى أحلامى كابوسا جديدا يؤرق عيشتى .. هل تبتغين لمولاكى أزمة ضمير جديدة .

- **كهرمانة** : حشاى يا مولاى أن أكون سببا فى كابوسا يؤرقك نومكم السعيد .. أرجو العفو والمغفرة . ونحن بصدد أوامرك بشأن شمس .

- **الخليفة** : أحسنوا معاملتها حتى أنظر بشأنها . وسوف أطمئن عليها كل يوم بنفسى .. وأحذرى أن تشتكى منك , فقد أصبحت أتحين الفرصة لقتلك فلا تجعلينى أعجل عليكى بنهايتك .

أنحنت كهرمانة وانصرفت بظهرها – حسب بروتوكول الملوك – من أمام العرش , وخرجت وهى تحدث نفسها قائلة ...

- أتتحين الفرصة لقتلى أيها السكير العربيد . وهو كذلك يا " سيدنا الفاسق ! " . لقد أرتقيت مرتقا صعبا يا ابن اللخناء ..

دخلت جناحها لتنادى وصيفتها " دلال " ....

- **كهرمانة** : دلال . انك أقرب من فى القصر إلى ولا أستطيع أن أثق بسواك .

- **دلال** : مرينى يا سيدتى . فأنا خادمتك المطيعة .

- **كهرمانة** : سوف تذهبين غدا إلى بيت عدوى بائع العطور المعروف فى سوق قرطبة . ومعكى ملابس شمس التى اختطفناها بها .. أطلبى مقابلته ولا تدخلين المنزل . فقط سلميه ملابس ابنته وهذه الرسالة . ثم تهربين .. ! .

- **دلال** : وماذا بهذه الرسالة يا سيدتى ؟ .

- **كهرمانة** (بحزم) : هل تعلمتى أن تسأل الوصيفة رئيستها أو تستفسر عن أمر ؟؟ .

- **دلال** : العفو يا سيدتى . ولكن هبى أن " عدوى " لاحظ ملابس شمس قبل هروبى . سوف يلحق بى وقد يقتلنى .

- **كهرمانة** : لا تخشى شيئا . سوف يتبعك ثلاث رجال أشداء من حرس الحرملك فى ملابس الباعة يغطون رؤوسهم بكوفيات وعمائم . فإذا حاول عدوى اللحاق بك عطلوه وأوقعوه على الأرض . وهو لن يلحظ ملابس ابنته سريعا لأننا سوف نلفها فى قماشة محكمة التعقيد , وسوف يأخذ وقتا إلى أن يفك عقدتها . . أعطيه " لفة " الملابس وقولى له " فاعل خير ! " .

استعدت دلال لتنفيذ أوامر سيدتها , وكهرمانة تحدث نفسها ...

- سوف نرى ياا أمير الفاسقين ماذا ستفعل حينما تثور عليك العامة بعد أن يصلها نبأ اختطاف شمس .. سوف نرى من منا يتحين الفرصة لقتل الآخر .. سوف أشهد بعينى نهاية خلافتك أيها " المنتظر ! " .

- 6 -

قـحـط الـرجـال

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
لكـن أخـلاق الرجـال تضيـق

عمرو بن الأهتم التميمى

(1)

يدخل مهران الصقلبى إلى قاعة العرش ...

- **مهران** : يا أمير المؤمنين .. القينا القبض على رجل كاد يعبر جبال الشارات إلى أعداءنا الإسبان . وكانت المفاجأة انه يحمل رسالة من القائد جؤذر إلى الملك سانشو , والمفاجأة الأكبر أن الرسالة احتوت على معلومات دقيقة خاصة بتشكيلات كتائب الجيش وتسليح الفرق وأماكن التمركز ومعلومات هامة عن قواتنا الباسلة .

- **الخليفة** : أرنى الرسالة ..

- **مهران** : هاك يا أمير المؤمنين .

يقرأ الخليفة الرسالة بما احتوت من معلومات عن جيشه ثم يغلقها وهو يلفها فى عنف ...

- **الخليفة** : كنا نعلم أن هناك رسائل متبادلة بين جؤذر وملوك الروم والإسبان . وكان يقول بأنها مراسلات خاصة بتبادل المعرفة الحربية بين الدول والتعرف على أحدث نظريات العصر ونظم المعارك . لكن لم نتصور أبدا أن فارس بنى أمية خائن لدولته وعروبته وخليفته فينقل أسرار جيشنا بالكامل إلى الأعداء ونقاط الضعف فى مواقعنا .

- ... كنت أعلم أن جؤذر يتقاضى الأموال من المستكفى حتى يخذلنى عن اتخاذ قرار الحرب ضد طليطلة . وكانت وجهة نظر جؤذر تبدو لى مقنعة , فهو لا يريد أن يورط الجيش فى حروب داخلية ويرى أن مهمة الجيش الأولى هى صد أعداءنا حيث الإسبان فى الشمال والبربر فى المغرب .. أما الآن فلا استبعد أن يكون المستكفى نفسه على علم بتشكيلات قواتى .

- **مهران** : كل شىء جائز يا مولاى .. وبالخصوص أن الأمير المستكفى جزيل العطاء . فهو يرى أن **العطاء عماد الدهاء** . ولا توجد عمارة وأعوان إلا بالمال الذى يتألف به قلوب العامة والخاصة على السواء . ولا تنسى يا سيدى أن المسكتفى هو أثرى أمراء بنى أمية .. وهو ينفق المال الذى يأتيه من ملوك أوروبا فى تجهيز آلته العسكرية , بينما أمير المؤمنين – أعزه الله – يكنز الذهب فى خزائنه ولا يدعم به نفسه إلا بأقل القليل .. وتذكر يا مولاى أننى ناشدتك بأن تقتلع المستكفى من طليطلة بالحرب لكنك أبيت إلا أن تستمع إلى نصائح جؤذر - حتى وصل الحال إلى ما هو عليه . . أضف إلى ذلك أن الأمير المستكفى يجيد لعبة الشطرنج !!! .

- **الخليفة** : ماذا ؟ .. وما دخل الشطرنج فيما نتحدث به ! .

- **مهران** : أعنى الشطرنج السياسى يا مولاى . فالمستكفى يعلم أن جل جيشك من قبائل القيسية , وكذلك جؤذر قائد الجيش فهو قيسى النسب لأمه . ومن هنا استطاع المستكفى أن

يحرك فيه نار العصبية فأقطع لأهل جؤذر من القيسيين الأراضى الشاسعة بطليطلة ذات الزروع والنخيل , وتزوج من احدى نساءهم وتدعى " أم الخليل " . وعلى ذلك ضغط القيسيون على قائدك بحد النسب والعصبية كى لا يخلص لعرشك تمام الإخلاص والولاء . وخصوصا أن والدتك يا مولاى من قبائل اليمنية – أعداء القيسيين – وأنت تعلم يا أمير المؤمنين أن العرب يرفعون من شأن قبائلهم حتى لتعلو فى كثير من الأحيان على ولاءهم للخليفة أو للوطن . . أما نسب جؤذر الأموى من ناحية الأب , فالمستكفى أيضا أموى مثل مولانا الخليفة – أعزه الله .

- **الخليفة** : أجل .. أجل .. لابد أن أعترف أن المستكفى رجل ذكى , ولا أداوى ثغرة فى دولتى حتى يخرق الأخرى . وقد أدى تحصنه بطليطلة أن أمتنع خراجها عن الخلافة وأضحت تصب ريعها فى جيوب هذا الداهية وإن لم يعلن استقلالها رسميا وهويستخدم ماله الموروث ومال طليطلة وأموال الروم فى تأريق مضطجعى والطمع فى الخلافة جمعاء . . هل تعلم اننى فى احدى الأيام تلقيت خبرا من أوروبا يفيد بإننى إذا توجهت بجيشى لحرب المستكفى سوف أعرض الحدود لهجمات قشتالة وليون ؟!.

- **مهران** : هذه هى الخطة يا أمير المؤمنين . انهم يدعمون الحركات الإنفصالية فوق كل بقعة على أرض الأندلس . ويخذلوك تارة ويهددوك تارة ويغرونك بالمال والقروض تارة ثالثة .

- **الخليفة** : وما العمل يا رئيس الشرطة ؟ .

- **مهران** : لو كانت الظروف هادئة لأشرت عليك بعزل جؤذر وإرساله لى لإستجوابه فى المطبق .. ولكنك لا تستطيع الآن عزله فالأندلس مهددة بالداخل والخارج .. ومنصب قائد الجيش هو أخطر مناصب الدولة , قد نجرى التغيرات بقمة القوات فى الأحوال العادية . أما فى وقت الأخطار فمن الأفضل أن يبقى الوضع على ما هو عليه .

- **الخليفة** : وإذا هاجم المستكفى هل أترك مصيرى بيد هذا الـ " جؤذر ! " .

- **مهران** : لابد من الذى ليس له بد .. عليك يا مولاى أن تقوى علاقاتك بملوك المسيحيين بالشمال , فهم أسياد جؤذر والمستكفى معاا . وإن بدا لهم أن أمير المؤمنين يرتهن قراراته لصالح الإسبان فلن يدفعوا إليك بالمستكفى أو يقلبوا عليك جيشك .

- **الخليفة** : يا سبحاااان الله .. أحتمى بالغرباء من جيشى وقوادى وأبناء عمومتى .. ! .. على أية حال فالحق معك ...

- **مهران** : ألا تلاحظ يا مولاى أن الخونة يحيطون بك من كل جانب كما أحاطوا بشنجول من قبل ... ! .

- **الخليفة** : انها مرحلة **قحط الرجال** يا مهران .. الجميع يتربص الدوائر بالجميع . ولا يوجد رجلا قديرا بحق وطنيا بصدق يستطيع أن يرتفع إلى مستوى المسئولية , وإذا وجد فإن الجو العام للفساد سوف يفسده مع الباقين .

- ... قائد الجيش خائن .. وتنظيم الذلفاء مجموعة من العملاء يحركون الشارع ضدى حين يأمرهم الإسبان بذلك ويزايدون على مبادىء الحرية ويهددون بإستمرار الثورة .. أما أنصارى فهم مرتشون لا ولاء لهم للخليفة ولا للدولة وإنما ولاءهم الأول والأخير للمال الذى أدفعه لهم .... لأول مرة احتاج إلى مساندة الوطنيين الحقيقين أبناء هذا البلد . . ما اسم زعيمهم ؟ .

- **مهران** : زعيم الوطنيين شابا يدعى حسن الحداد - يعمل فى سوق السلاح .

- **الخليفة** : اتصل به وأكسبه إلى صفنا , قل له أن أيام الخير والحق والعدل التى وعد بها أمير المؤمنين سوف يأتى سعدها . سله أن يطوى العامة من جديد تحت لواء الخلافة فهم أخلص الأعوان .. استطيع بالعامة أن أقف ضد الخونة فى بلادى والإسبان فى الشمال والبربر فى الجنوب . . أعلم أن الناس لم تعد تصدقنى ولكنى أعتمد على ذكاءك يا مهران . لو كان لى عشرة أعوان مخلصين مثلك لأمتلكت العالم .

- **مهران** : كلنا خدم أمير المؤمنين .. والآن اسمح لى أن اهديك هدية ...

- **الخليفة** (مبتسما) : هدية !! .. أى هدية !! ..

- **مهران** : انها وصايا إلى الحاكم الناجح أستخلصتها من خبرتى فى معاشرة الملوك ووضعتها فى هذا الكتاب .. إأذن لى يا مولاى أن أقرأ لك بعض السطور مما كتبت . وأعترف بأننى تعلمت كثير مما فيها من حكمة أمير المؤمنين – أعزه الله .

- **الخليفة** : مرحاااا .. افعل يا مهران .. إقرأ لنا ما ألفت وكتبت .

.....
.....

بدأ مهران يقرأ بعض السطور من كتاب ألفه فى سنوات , وأعتبره خلاصة تجربته من الحكم و السلطان ...

* على الحاكم أن يكون مستبدا . وقديما قالت العرب " العاجز من لا يستبد " فالإستبداد قوة وفحولة وهيمنة وسيطرة .

* هيبة الخليفة تلزم بالطاعة , وابتذال مقامه يغرى بالمعصية . وأن يهابك الناس خير من أن يحبوك . فإن الأولى تمنعك والثانية ترديك .. فأمتنع عن الرعية .

* اذا تواضع الخليفة ظنوا به ضعفا ونعتوه بأوصاف النساء . وإذا تجبر قالوا طاغية إلا انه فحل . فأى الوضعين تختار . انك إذ تحتجب وتحفظ هيبة السلطان فإنك لا تحفظ نفسك بقدر ما تحفظ الآخرين من عاقبة الجرأة عليك .

* إذا شككت فى أحد لا تمهله حتى تنظر بالبينة . أقطع الشك باليقين واليقين بالقتل .

* على الحاكم ألا يكون سخيا حتى لا يستهلك موارده , فالشعوب تستطيع أن تعيش على كفاف العيش لقرون طويلة لأن الأمم لا تتعب .

* على الحاكم أن يكون مهابا أكثر من كونه محبوبا . إن البشر يسيئون إلى من يحبون لكنهم لا يؤذون من يهابون . ذلك لأن الحب متصل بسلسلة من الارتباطات التى تتفكك عندما تؤدى غرضها (وذلك بسبب أنانية الناس) . لكن استخدام المهابة وخوف الناس من العقاب طريقة لا تفشل أبدا .

* على الحاكم أن يكون فى دهاء الثعلب وقوة الأسد فيقلد الاثنين معا . لأن الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب . على ولى الأمر إذن أن يكون ثعلبا ليواجه الفخاخ ويكون أيضا أسدا ليخيف الذئاب .

* لابد أن يكون الحاكم قادرا على الخداع والتمويه , حيث أن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أى أمر واقع , ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة .

* إذا كان أمير المؤمنين رحيما .. صادقا .. متدينا .. عليه أن يهيأ عقله لكى يتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة . . و يجب أن يكون مفهوما أن الخليفة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيرا .. وذلك لأنه فى سبيل الحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين . ولذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أى ريح قد تهب عليه ومع تغييرات المستقبل .

* لابد ألا تظهر على الخليفة سوى صفات الحق , ولابد أن يكون متدينا أمام من يراه ويسمعه , لأن الناس يحكمون على ما يرون بأعينهم وليس على ما يدركونه .. فكلنا يستطيع يستطيع الرؤية لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذى أنت عليه . . فعامة الناس يحكمون على الأشياء بمظهرها الخارجى . وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة . أما غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الحاكم .

* على الحاكم أن يتمسك بما يصدر من قرارات مهما بدت غير منطقية أو مقنعة , حتى لا يظن الناس فيه الضعف والتردد .

* ينبغى على ولى الأمر أن يحتاط من تآمر الرعية عليه . ولهذا فإننا نضرب المظاهرات بالحشد المضاد أو بالمجرمين والأرزال حتى يبدو المعتصمين مخربين وليسوا أصحاب قضية . مع استمرار الترهيب بفزاعة التطرف وتخيير الشعب إما بين الحاكم الحالى والإستقرار فى ظله أو الفوضى بدونه والإرهاب بعده .

* من دواعى الحيطة ضد يقظة الشعب أن تسلط عليه الفقر حتى ينشغل الجميع بلقمة العيش عن شئون السياسة . وسوف يتولى الإشراف على برنامج إفقار الشعب هؤلاء التجار الجشعون الذين يدفع لهم الحاكم بالإمتيازات والإحتكارات ويشاركهم أرباحهم ويقنن ما يخدم مصالحهم من تشريعات تحميها الشرطة . فالفقر وحده هو القادر على إفساد الأخلاق الحسنة أو محوها فيجعل الفرد يكفر بنعم صاحب الفضل عليه , ويجعله حاقدا على قومه , وفاقدا حب وطنه , لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو هاجر منه . كما أن الفقر والجوع يسلبان الراحة الفكرية فتمرض العقول ويختل الشعور . والعوام والبسطاء المعدمين قد يصل مرضهم العقلى إلى عدم التمييز بين الخير والشر فينصعون لعاهلهم البطاش انصياع الغنم للضباع حيث تجرى على قدميها جاهدة إلى مقر حتفها .

* أعلم يا أمير المؤمنين أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية كالأعمال الشريرة . فمهما حاولت الإصلاح سوف تجد من يبغضك ويندد بك وبعهدك , وعلى ذلك يكون من الأسلم والأسلس أن تبقى الأمور على ما هى عليه فيريح الحاكم ويستريح .. أما المطالبين بالإصلاح فإن جهاز الأمن كفيل بهم إما بالقمع السلطوى أو بقمع الفوضى .

* أحذر التحالف الحقيقى مع المعارضة لأنك ستظل تحت سلطانها , وقد يؤدى هذا التحالف إلى تدميرك .. وإذا اضطرتك الظروف لمثل هذا التحالف يجب ألا يكون إلا مظهريا فقط وموقوتا لأجل إضعاف المعارضة وتصفيتها تحت وطأة مسئولية المنصب .

* لا يجب أن تدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة , ولكن الأجدر بك أن تجعلها تعتقد أن كل السياسات مشكوك فيها .. وهذا الأمر سوف يجعل الوزراء يتجنبون كل المقترحات النهضوية وسوف تتدنى مهامهم من الإبداع السياسى إلى العمل الوظيفى . ويكون قصارى جهدهم أن يسيروا الأعمال بما يرضى الحاكم .

* ينبغى على الحاكم أن يصون وفاء رجاله له , فينظر فى أحوالهم ويكرمهم ويغدق عليهم ويرفع منزلتهم . ويستطيع الحاكم ورجاله الإعتماد على بعضهم البعض إذا استمرت العلاقة على هذا النحو من تبادل المصالح الشخصية , أما إذا شابها غير ذلك فالنتيجة هى دخول " المؤامرة " بينهم وفى كواليسهم .

* يجب أن تطمئن الناس بالإدعاء انك تحب ان تسمع منهم الحقيقة , لكن فى الوقت نفسه لا تنفذ شيئا من هذه الحقيقة .

* يجب أن تختار من " ينصحوك " ولا يجب على الحاكم أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر .

* اعلم يا أمير المؤمنين أن العلم والإيمان ينيران العقول والأفئدة , وهنا ينبغى محاصرة العلم بالجهل وضرب الإيمان بالدجل والشعوذة . إن الجهلة والأميين هم قوة العاهل المكين , يصول عليهم ويجول فيتهللون لشوكته , ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقائهم أحياء , فإذا قتل منهم ولم يمثل قالوا رحيما , ويهينهم فيثنون على رفعته , ويغرى بعضهم ببعض

فيفتخرون بسياسته .. وعلى ذلك فإن الجهل والشعوذة ينميان لدى الناس الشعور بأن طالب الحق فاجر , وتارك حقه مطيع , والمتظلم مفسد , والنبيه ملحد , والعبقرى مجنون , والخامل صالح أمين . . وعلى ذلك **عندما ينحصر العلم وتتفشى الجهالة فإن الأمة يتحول ميلها الطبيعى من طلب الترقى إلى طلب التسفل , بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الكفيف من النور إن فاجأة , وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها** . وعندئذ تصير الأمية كالعلق يطيب لها المقام على إمتصاص دم الشعب فلا تنفك عنه حتى تموت ويموت هو بموتها .. أما ملذات هؤلاء الجهلة فسوف تنحصر فالأكل والجنس والإنجاب .. !.

* ان التاريخ يسيطر على أحداث هذا العالم وليس بإستطاعة البشر أن يغيروها مهما بلغت جهودهم , ولذلك فإن كثرة التعب فى الحياة غير مفيدة , فلا ينبغى أن يشغل الحاكم نفسه بتحدى النظام العالمى لحركة الكون السياسى . فالدول تقوم وتسقط دون إرادة منا وإنما هى حركة التاريخ التى تحركنا كلنا وتسيطر على الجميع .

.....

- **مهران** : آمل أن يكون مجهودى قد نال إعجاب مولاى أمير المؤمنين .

- **الخليفة** : أحسنت يا كبير البصاصين أحسن الله إليك . أترك لنا هذا الكتاب حتى نقرأه على مهل فى المساء ... ولكن لا أخفيك أن هناك سؤالا دار فى مخيلتى منذ أن شرعت فى القراءة ...!! .

- **مهران** : سل يا سيدنا المهدى . فكلنا خدمك وعبيدك .

- **الخليفة** : لماذا لم تعرض هذا العمل على شنجول فى العهد البائد ؟ .

- **مهران** : كان شنجول – غفر الله له – صاحب زاوية واحدة , فهو لا يقرأ ولا يتحشم ولا يتمسح فى أى مظهر من مظاهر الجد . حياته كلها هزل فى هزل ... أما أمير المؤمنين – نصره الله – فهو متعدد المواهب والأطياف . أحيانا نرى فيه الإنسان وأحيانا أخرى يغلب عليه السلطان . يحتار الرعية هل الخليفة حريص فعلا على البلاد والعباد والدين أم أنه لا ينظر إلا للعرش والسلطة والمال ولو استحوذ عليهم فوق مصالح الناس والأجيال القادمة .

- ... انك يا مولاى تحافظ على الصلاة وتقارع النبيذ !. تفزع أعتى الرجال ثم تفزعك عيون فتاة حدثة السن !. نسبح معا فى دماء معارضيك ثم تدمع عيونك لمشهد الغروب !. . ان هذا التناقض قد فجر فى نفسى الكثير من سطور هذا الكتاب فأهديتها لكم يا سيدنا المظفر .

- **الخليفة** : وأنت يا رئيس شرطتنا .. أين تجد نفسك من هذا التناقض ؟ .

- **مهران** : أنا لا أتناقض يا أمير المؤمنين لقد خلقت خادما لولى الأمر أيا ما كان الجالس على العرش .. أنا الأمن والنظام .. للسلطان سيفا وللشيطان طيفا ... فأنا وصاحب السلطة لا

غنـى لكلانـا عـن بعـض - بـل خلقنـا الله لبعضـنا الـبعض .. مثـل .. الليـل والظـلام .. الحريـق والصـهد .. السيف والغمد .. البحر والملح .

*** **يصيح جرير على باب الخليفة** ...

الوزير فائق ناظر الحسبة الشريفة ...

- **فائق** (منحنيا – واضعا يديه إلى رأسه فى وضع التحية) : السلام على أمير المؤمنين . السلام على رئيس الشرطة وكبير البصاصين .

- **الخليفة ومهران** : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- **فائق** : طلبت منى يا مولاى أن أحضر معى كشف التجار الجدد من رجال أمير المؤمنين – أعزه الله – الذين شملهم بعطفه ومنحهم احتكارات البضائع .

- **الخليفة** : أجل . أجل .. كنا قد أجرينا بعض التعديلات . فأمرنا بالقبض على محتكر الفول ومحتكر الزيت وأن يسلموا إلى مهران حتى يستوفى أموالهم ثم أبدلناهم بغيرهم .

- **مهران** : استلمت فعلا يا مولاى محتكر الفول ومحتكر الزيت . فقد بلغوا حدا كبيرا من الثراء وأكتشفنا أنهم لا يؤدون للخلافة حقها من الربح .

- **الخليفة** : أريد أن أعرف على وجه السرعة أين يخبئون أموالهم يا مهران وأن تضع ممتلكاتهم تحت تصرف قصر الزهراء .

- **مهران** : لن يطول الأمر حتى نلقى بذهبهم تحت أقدام أمير المؤمنين .

- **فائق** : هل لى أن أعرض على مولاى كشف المحتكرين فى الأندلس بعد تعديل ما فيه ؟ .

- **الخليفة** : كلا يا ناظر الحسبة .. فقط أترك الكشف بجوار هذا الكتاب الذى ألفه مهران .. سوف أطلع على كليهما فيما بعد ... وحدثنى عن نشاط نظام **" الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر "** التابع لك ..

.... وبدأ الوزير فائق يحدث الخليفة عن آخر تطورات نظام " الأمر بالمعروف ! " الذى حوله ناظر الحسبة إلى آداة لجلب الأموال . فالقائمين بهذا النظام يتصيدون على الناس الأخطاء ويهددوهم بالسجن إن لم يدفعوا " اتاوة " معلومة يحولها محتسب الحى إلى ديوان فائق . ثم يحولها فائق إلى خزائن أمير المؤمنين . وبذلك استطاع ناظر الحسبة أن يجمع الكنوز لمولاه الخليفة بعد ان يستصفى حسابه !! .. وان يبتدع مصادر جديدة للمال .

ومن مبكيات عصر " المهدى المنتظر ! " أن بدأ الفتوات والأشقياء يطلبون من الوزير فائق أن يسلمهم **" الحسبة و الأمر بالمعروف "** فى أحد الأحياء نظير مبلغ من المال يدفعوه للوزير مقدما . ولا يمر وقت طويل حتى يصبح الفتوة أو المجرم صاحب إمتياز " الأمر بالمعروف ! " أحد أثرياء قرطبة .. لأنه ببساطة يتعسف ضد سكان الحى المنوط به فيتصيد لهم أخطاء لم يرتكبوها ويجلدهم ويغلق حوانتيهم نظير " المعلوم " الذى بالطبع يكون أضعافا مضاعفة لما دفعه لفائق ناظر الحسبة !! .. ومن الغريب أن المذنبين فعلا لا يعاقبهم محتسب الحى لأنهم يرشوه مقدما ! .

(2)

فى **مسجد قرطبة** يجلس **" على ابن حزم الأندلسى "** ساندا ظهره إلى أحد الأعمدة الرخامية الشاهقة . ويجمع حوله عدد من الشعراء والوطنيين والمجاهدين والساخطين ...

مسجد قرطبة قال فيه الرازى بأنه " ليس فى بلاد الإسلام أكبر منه " .. وهو يعد واحد من أروع أمثلة العمارة الإسلامية حيث يمتاز بكثرة الزخارف والجمال , كما كان من الواجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيه العلوم الدينية واللغوية .. شرع فى بناءه الأمير عبد الرحمن الداخل المعروف بـ " صقر قريش " مؤسس البيت الأموى فى الأندلس , لكنه مات قبل إتمام البناء الذى استأنفه ابنه الأمير هشام الرضا . ثم زيد فى الجامع زمن الأمير عبد الرحمن الثانى المعروف بـ " الأوسط " , وفى عهده أقيم ممرا بين قصر الحكم والجامع اسمه ممر " الساباط " حتى يخرج الأمير من قصره إلى الجامع دون أن يراه أحد من الناس . . هذا وقد بلغ الجامع أوج اتساعه فى عهد عبد الرحمن الثالث المعروف بـ " الناصر " الذى تخلى عن لقب الأمير واتأخذ لنفسه ألقاب الخلافة فصار يعرف بالخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله .

ويستطيع المؤرخ أن يجزم بحسم أن " ربيع الأندلس " هو الفترة الممتدة من عام 138 هـ (حيث تولى الأمير عبد الرحمن الداخل) إلى عام 399 هـ (حيث توفى الحاجب عبد الملك بن المنصور أبى عامر) .. أى 261 سنة .. ومع بداية حكم أبى المطرف شنجول بن أبى عامر يبدأ تاريخ دولة الإسلام بالأندلس يدخل فى شبورة الغروب .

.....

على بن حزم . ومن قبله يحيى بن الحكم الغزال . ومن بعدهما أحمد بن رشد .. هم أشهر علماء الأندلس وفقهاءها وفلاسفتها ..

وحول ابن حزم يجلس ابن زيدون وابن عبدوس وهما أبرع شعراءعصرهما وسوف يتمكن الأول فيما بعد من الوصول إلى منصب الوزارة فى عهود الملك ابن جوهر والملك المعتمد بن عباد .

يقول ابن حزم لمريديه ...

- يجب أن يعلم الطواغيت اننا الأقوى .. لن يجعلوا من شعبنا شعب عبيد . فنحن الأحرار باقون فى هذه الأرض . فيها وجدنا منذ فجر العمر . فيها لعبنا وعشقنا وكتبنا الشعر . اننا باقون فى خلجانها وزيتونها وقمحها المصفر . . اننا الأحرار باقون فى نبيها الكريم . فى قرآنها . فى الحفر على صلبانها ...

- ... لا تسكروا بالنصر فإذا قتلتم خالد فسوف يأتى عمرو وإن سحقتم وردة فسوف يبقى العطر .. سوف نخرج لكم بالثورة من قصب الغابات . من ضفائر البنات . من أوعية البخور . من أغطية الصلاة ومن ورق المصحف نأتيكم . من السطور والآيات ..

- ... أيها الطغاة , لا يأخذكم الغرور . عقارب الساعات إن توقفت لابد أن تدور . لن تستريحوا معنا . كل قتيل معنا يموت آلاف المرات . رجالنا يأتون دون موعد فى غضب الرعد وزخات المطر .

يكبر من فى المسجد من مريدى ابن حزم .. الله أكبر . الله أكبر

- **حسن الحداد** : قل لنا يا إمام .. كيف جاء منصب الخلافة ؟ . وكيف تحول من الراشدين رضوان الله عليهم إلى هؤلاء الطواغيت الذين يحكموننا بإسم الدين .. وهل يجوز شرعا أن يقال بأن الخليفة هو " خليفة الله وظله فى الأرض ! " .

ابن حزم (يرد على سؤال حسن فى هدوءه الواثق المعتاد)...

- ... الخلافة هى نيابة عن صاحب الشرع – النبى *صلى الله عليه وسلم* – فى حفظ الدين وسياسة الدنيا , بمعنى أن الخليفة لا يعدو أن يكون رئيسا دينيا وسياسيا نيابة عن رسول الله , يجمع بين السلطتين : الدينية والدنيوية .

- ... السلطة الدينية بإعتباره إماما للمسلمين يؤمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة والإنصاف ويحمى الدين ويذب عنه من خطر الخارجين عليه .. ودنيوية لأنه ينظر فى مصالح المسلمين الدنيوية . . والخلافة هى نظام حكم حتمته الظروف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يعين للمسلمين حاكما لهم من بعده . وكأنما أراد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم .. ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يقر نظاما معينا بعينه للحكم إلا أن يكون شورى بينكم .

- ... وهكذا وجد المسلمون أنفسهم فى سقيفة بنى ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة على أساس السبق إلى الإسلام وعلى أساس الانتماء إلى قبيلة قريش , وأخيرا على أساس تفويض رسول الله له بإمامة المسلمين فى الصلاة عندما اشتد المرض الأخير بالنبى .

- ... وذكر بعض العلماء أن منصب خليفة الرسول له خمس شروط .. هى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والنسب القرشى . لكن هناك من يرى أن " النسب القرشى " غير ضرورى لإختيار خليفة المسلمين وإنما هو تعصب عربى قرشى قصد به إبعاد المنصب عن

الأنصار وأهل العجم . . هذا مع العلم أن كل الخلفاء الراشدين بالمدينة , والأمويين بدمشق وقرطبة , والعباسيين ببغداد , والفاطميين بالقاهرة كانوا قريشيين النسب .

- ... أما معنى كلمة " الخلافة " هى خلافة رسول الله . وقد نهى أبا بكر أن يقال (خليفة الله) , لأن الاستخلاف إنما يكون لمن غاب أو مات . والله لا يغيب أو يموت .. إذن فالخليفة هو القائم مقام النبى فى الرعية وليس مقام الله فى خلقه . وقد أعتبر بعض الفقهاء الحاكم الذى يعتبر نفسه (خليفة الله وظله فى أرضه) هو حاكم فاجر .

- ... هذا وكان عمر بن الخطاب هو أول من تلقب بـ " أمير المؤمنين " . وبذلك جمع ولى الأمر بين لقب الخليفة وأمير المؤمنين . ويتضمن هذا اللقب معنى القيادة والإيمان أى يجمع بين السلطتين الإدارية والدينية , وهو لقب يتناسب مع عصر الفتوحات . . وأول من دعا عمر بهذا اللقب هو عمرو بن العاص وقيل عبد الله بن جحش والمغيرة بن شعبة .

- ... ثم تحول نظام الخلافة من الشورى إلى الوراثة مع الدولة الأموية , وبدت الدولة الإسلامية قيصرية أو كسروية فى بلاطها الحاكم وموكب ولى الأمر وقصور الأمراء وحجابهم وحرسهم . ورغم أن معاوية بن أبى سفيان يعد أول ملوك الإسلام إلا أن العرب وعواهلم قد أنفوا من تسمية " الملك أو القيصر أو الكسرى " واستمسكوا بلقب الخليفة . وتحولت الدولة الأموية إلى نظام الإستبداد , ولم تكن البيعة إلا إجراءا شكليا .

- ... ومع مجيء الدولة العباسية فإنها لم تكتفى بالإستبداد ولكن أصرت على أن الخليفة هو (خليفة الله) , وبدأوا يضيفون لفظ الجلالة إلى الألقاب الخلافية . فنرى المنصور بالله والهادى لله والرشيد بالله والمعتصم بالله والمتوكل على الله . وتعقد نظام الحكم فى العصر العباسى فأصبح الخليفة يستمد سلطانه من الله وبتفويض منه عز وجل – لا من الشعب – وبدأ رفع ولى الامر إلى ما فوق مستوى البشر .. تغيرت اذن نظرية الخلافة فى عصر العباسيين وأصبحت تشبه نظرية الحاكم إبن الإله عند آل فرعون والروم أو الحق الإلهى المقدس عند الفرس وملوك الفرنجة . وذلك لأن العباسيين استندوا فى حكمهم إلى مبدأ القرابة من الرسول , ونادوا بفكرة العائلة المختارة المطهرة من الرجس .

- ... أما فى العصر الفاطمى الشيعى فقد وصل الخليفة إلى ما يقارب " التأليه " أو التأليه فعلا – وهو ما يتناسب مع الفكر الشيعى النازح إلى التطرف فى جل الأشياء – . وبذلك تعقد أكثر وأكثر منصب الخلافة من البساطة إلى التكلف . واستمسك الخليفة بلقب " الإمام ".. ومن سمات التأليه التى كانت موجود عند الفاطميين ألا يخاطب الخليفة وزراءه إلا من وراء حجاب من الستائر الذهبية . وأن يضع قناعا أخضر على وجهه ويرتدى قفازا فى يديه إذا اضطر للجلوس مع رجال حكومته أو السير فى مواكب تخترق شوارع القاهرة , فلم يكن مسموحا للعامة أن ترى ولى الأمر فهو حجاب الخفاء ونور التجلى !! . . وقد تبارى الشعراء فى تقديس الخليفة لعل أشهرهم هو " ابن هانىء الأندلسى " الذى وصف المعز لدين الله الفاطمى بالواحد القهار ! . أما أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله فقد تطور وتعمق فى مشروع تقديس الخليفة إلى أن اختفى فى ظروف مريبة .

- ... وعندما أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة فى الأندلس فإنه جاء ووراءه موروث تراكمى من " تقديس الحاكم الذى نصفه إله ونصفه الآخر بشر " . وقد تبعه خلفاءه فى هذا التقليد .. الحكم المستنصر بالله .. وهشام المؤيد بالله .. ومحمد المهدى بالله .. وبذلك وبالتدريج , ازدادت الهوة بين الواقع والمثال حتى اختفى المثال الأول الذى بدأت عليه الخلافة الراشدة وظلت حلما فى بطون الكتب وشروح المفكرين وآمال البسطاء .

ويستأنف ابن حزم ...

- ... لكنى أقول أن الخليفة مسئول سياسيا ويخضع لمبدأ العزل وليست له حصافة تقف حائلا دون محاسبته , فللأمة حق نقده , فضلا عن أنه مسئول جنائيا عن جميع أفعاله وأحداث عهده سواء ما يتعلق بمنصب الخلافة وما لم يتعلق . ويخضع الخليفة أيضا للمساءلة المدنية وأحكام المعاملات الشرعية , فلا يجوز للإمام أن يتعدى على حقوق الأفراد , فإن فعل ذلك كان لمن أضير بفعله حق اللجوء إلى القضاء للمطالبة بحقه .. فالخليفة فى رأى الشرع ليس معصوم ولا هو مهبط الوحى , وهو ليس ممثلا للسلطة الإلهية , وإنما هو ممثلا للأمة التى اختارته ويستمد منها سلطاته المحدودة , وليس من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . وولى الأمر ليس مطلق السلطة – ولو كان منتخبا ومبايعا – **إن السيادة الإلهية وحق التشريع أصبحا بعد إنقطاع الوحى وديعة فى يد الأمة** .

.....

- **ابن عبدوس** : يا إمامنا لم يعد الوضع فى قرطبة يطاق . وفوق كل ما اقترفه محمد المهدى من جرائم بحق البلاد , تجىء جريمته الكبرى أن يبقى الوزير فائق بمنصب الحسبة الشريفة , والمعروف أن هيئة " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " تتبع المحتسب . فيكف يؤمر علينا رجل شاذ ينهانا عن المنكر وهو المنكر ذاته ويأمرنا بالمعروف وما عرف للمعروف طريقا .

- ... ان نظام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد وضع لمكافحة الغش فى الأسواق والتطفيف فى المكيال ومراقبة الأسعار . بالإضافة إلى منع الشباب من مغازلة ربات الخدور ومراقبة النظافة ومساعدة الشرطة فى بعض أعمالها , وغيرها من المهام الحيوية .. لكن فى عهد محمد المهدى ساء التطبيق . وأصبح رجال المحتسب يمدون أيديهم للرشوة من التجار والحرفيين حتى يتركوا لهم الفساد فى الفساد والغش فى الصنعة . واستغلوا وظيفتهم الشريفة فى مراقبة البيوت والتجسس على الحرمات بدلا من مراقبة الأسواق والدروب والضرب على يد الأشقياء .

- ... انهم لا يهتمون إلا بجلد المتخلف عن الصلاة لكنهم يصمون آذانهم عن صيحة استغاثة لمرأة يتحرش بها المجرمين . يصرون على تنقيب النساء ولا يطهرون البلاد من بيوت الدعارة والبغى . يقطعون يد سارق اختطف رغيف عيش لأطفاله الجوعى ثم يغمضون أعينهم عن أصحاب الوكالات والمتاجر والمحتكرين الذين يسرقون المستهلك كل يوم مستغلين حالة الفاقة والحوجة التى تمر بها قرطبة .

- ... أضحى الأجانب والإسبان هم أصحاب السيادة فى بلادنا وأصحبنا نحن الغرباء . والأدهى والأمر أن تغزونا عادات هؤلاء الإسبان دون رادع من الدولة فكثرت حانات الخمر والمراقص والفحش وبغايا الشوارع , وفقد العربى رجولته وهيبته وصار ناعما طريا مثل عذراء أو إمرأة رومية .. زادت ظاهرة التسكع والتنطع فى الشوارع بين الشباب والفتيات . انهم لا يجدون البائة ليتزوجون فيفضلون لقاءا يباركه الشيطان .

- ... أين أمير المؤمنين من كل ذلك ؟!.. أكاد أجزم أنه يشجع ذلك من وراء حجبه المقدسة . انه يريد للشباب ان يتحولوا من مجاهدين إلى مجرمين أو مخنثين ارضاءا لحلفاءه ملوك ليون وقشتالة ونبارة والباشكنش . وتأمينا لعرشه .

- **ابن حزم** : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو التعرض للشر والدعوة إلى الخير وصيانة المجتمع من الفساد . وهو تكليف ليس بالهين ولا باليسير إذا نظرنا إلى طبيعة الناس وشهواتهم ونزواتهم ومصالح بعضهم ومنافعهم وغرور بعضهم وعنادهم فى الحق . فالناس فيهم الجبار الغاشم , والقوى المتسلط , والهابط المستهتر , والظالم الذى يكره العدل , والمنحرف الذى يكره الإستقامة .. ومن هنا ينبغى على المحتسب القائم على هذه النظام أن يكون قوى الإيمان ومطبوع على الحب والألفة حتى يستطيع هداية الناس بالرأفة أو توقيع الغرامات عليهم مستخدما الأخلاق .

- **حسن الحداد** : وكيف توقع الغرامات بالأخلاق يا إمام ؟ .

- **ابن حزم** : إذا امتنع التاجر الغشاش عن عن دفع الغرامة , يقوم معاونوا المحتسب بكتابة " صك " بالغرامة ويضاف على ضرائب التاجر أو تراخيصه . وإذا لاحظ شابا يتحرش بفتاة أسرع بالتقبض على الشاب وإحالته إلى المخفر - ولكل جريمة وسيلتها فى ردعها حتى يستوفى المعروف طريقه وينحصر المنكر بالتدريج .. أما ما يحدث فى زماننا من قبول معاونو المحتسب للهدايا وتفشى المحسوبية فى أحكامهم , وجلد الناس فى الطرقات وترويع النساء بالنظر شذرا إليهن . كل هذا يخالف أسلوب الرسول الكريم والخلفاء الراشدين فى مراقبة الشوارع والأسواق والطرقات . . بل إن كلمة " المحتسب " فى عصرنا الأعرج صارت مرادف لكلمة " المحسوبية ! " .

- ... ولهذا أقول أن المحتسب نفسه ينبغى أن يكون قوى الإيمان حتى لا يظلم الرعية . ينصح باللين . باش الوجه . بعيدا عن غلظة القلب . عاقلا . مواظبا على سنن الرسول . يتعفف الرشا وأموال الناس . يرفض الهدايا والمجاملات . عالما بأحكام الشريعة . . وتأكدوا أنه إذا وجد الناس فى المحتسب ومساعديه بالأسواق القدوة والمثل الأعلى للمسلم الصالح سوف تقبل الرعية بنفسها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

- ... كذلك لابد أن يكون المحتسب رجلا حذقا ملما بأساليب الغش والتحايل . وأن يساوى فى المعاملة بين المسلمين واليهود والنصارى . وأن يطبق على نفسه ما يطبقه على الناس , فلا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ثم يقوم هو نفسه بالمنكرات والفسوق .

.....

- **ابن زيدون** : يا ابن حزم .. سوف أرحل أنا وابن عبدوس من قرطبة ومعنا لفيف من الشعراء وأهل المدينة ..

- **ابن حزم** : إلى أين تتجهون .. ؟ .

- **ابن زيدون** : إلى طليلطة حيث إمارة المستكفى , سوف نؤاذره على خلع المهدى .. فقد أساء إلى منصب " الخلافة " , و اساء اختيار " محتسب الدولة " ومعاونيه , وتفشت فى عهد كافة المنكرات وضل المعروف طريقه .

- **ابن حزم** : لا تفعلون . انها والله لفتنة كبرى تطيح بالإسلام والمسلمين , فالأمير المستكفى ليس إلا عميلا للإسبان وهو ليس بأفضل من المهدى بل أكثر منه فسوقا . . انكم بذلك تساعدون الإسبان فى مخططتهم الذى يحيق بالأمة إذ يدعمون الحركات الإنفصالية حتى يقتتل المسلمون فيما بينهم فى مسلسل لا نهائى من الدم . . ورغم أننى أحفظ للأمويين الأولين العظام حقهم من المجد إلا أنه قد حانت اللحظة التى يحكم فيها هذا الشعب نفسه بنفسه .

- **ابن زيدون** : ولكن الأمير المستكفى يقدم فى طليلطة الدولة النموذج التى يقتضى بها العواهل . فهو يصرف ببذخ على العلماء والشعراء ويعطف على رعيته . . وابنته " ولادة " قد جعلت من قصرها قبلة يقصدها المظلوم ولا يعود من رجاءها إلا منصوفا .

- **ابن حزم** : انه يستدرجكم بالبذخ حتى يحصل على الخلافة ثم يقلب لكم ولشعبه ظهر المجن .. وقد كان المهدى سخيا حين كان من عامة الناس ثم أنقلبت أخلاقه إلى بخلا منذ أن تولى . . أما الأموال التى ينفقها المستكفى على أنصاره ليست من خاصته بل هى مساعدات أعداء الإسلام حتى يجمع الشيع والأتباع وتنقسم الدولة بين ملوك متناحرون .. .. ولا تنسون أنه **إذا تصارع الثيران فإن العشب وحده يموت** . وإذا تصارعا المستكفى والمهدى لن يموت إلا شعب الأندلس .

(3)

انها **ولادة بنت المستكفى** أحب بناته إليه بل أحب من كل أبناءه . لم تكن بارعة الجمال ولكنها عرفت كيف تبدو جميلة ومتجددة دائما . فهى إمراة مثقفة يجمع قصرها الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة .

ثرية .. فهى الثريا المدللة لأبيها المستكفى أغنى أمراء الأمويين . ممشوقة القوام كأنها فلك مشرعة على الأمواج ... جذابة .. استطاعت أن تزرع وجهها مثل وردة بللها الندى داخل قلب كل من التقاها . فهى تعطى نظرة ناعسة لا تفى بوعد بل تزيد الشوق لهيبا .

لها أخلاق عربية من شهامة وأصالة لكن سجاياها لا تصل فى البراءة والعفة إلى درج " شمس " .. خبيرة بشئون الرجال والحكم والسلطان ولكنها لا تتدنى إلى درك " كهرمانة " . .

دائمة الفخر بنسبها الأموى وأبيها المستكفى , فهى تشير إلى نفسها من آن لأخر بقدر كبير من الكبرياء والإعتزاز قائلة ...

- أنا ولادة بنت المستكفى

لعبت دورا كبيرا فى تهيئة الآلة الإعلامية لأبيها والدعاية لعهده القادم , فهى صديقة الشعراء . تصرف بكرم على مطربين المقاهى الذين ينشدون الأمل فى الأغانى بمدح المستكفى .. أيضا تفرش الأسمطة للفقراء والمساكين . وتوصى الخدم الذين يعدون الموائد أن يقولون للفقراء من آن لأخر - أثناء تناول طعامهم ...

- أدعوا لمولاكم المستكفى !.

وهى طريقة حاذقة تجعل الجائع يتذكر بإستمرار صاحب النعمة – أثناء المضغ والبلع والأكل !!! – انه الخير الذى يشوبه الباطل والمن فى كل لحظة .

لم يستمعا الصديقان ابن زيدون وابن عبدوس لنصائح ابن حزم بالبقاء فى قرطبة , وقررا أن يطلبا المال والعز فى بلاط المستكفى بعيدا عن بخل المهدى , فسافرا إلى طليلطة يحدوهما الأمل لرؤية " ولادة " التى طالما سمعا عنها . ولم يمر وقت طويل حتى وقعا فى حبالها وكأن مسهما مسا من جن أو نداهة لا فكاك منها . . وبعد مدة قصيرة صار الأصدقاء هما ألد الأعداء إذ يتنافس كل منهما على حب ولادة . وهى تمنى هذا وذاك ولا تعطى إلا أقل القليل لهذا ولذاك تاركة ابن زيدون وابن عبدوس يطناطحا فى حبها مثل كباش فقدت عقالها . وتنظر هى إليهما مثل متسابق ينتظر بشغف نتيجة الحسم فى مصارعة للديكة .

- **ولادة** : قل لنا ابن زيدون آخر ما نظمت من شعرك عنى .

- **ابن زيدون** ..

ودع الصبر محب وادع
ذائع من سره ما استودع
يا أخا البدر ثناءا وثنا
حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم
بت اشكو قصر الليل معك

وفى سباق الديكة يغتاظ **ابن عبدوس** من نظم صديقه اللدود فيصيح قائلا فى ولادة ...

- لو كان لى قلبان لعشت بواحد
وتركت قلبا فى هواك يعذب
لكن قلبى تملكه الهوى
فلا العيش يحلو له ولا الموت يقرب

كعـصـفور بيـد طـفل يضـمها
الــطــائـر يـمـوت والـطفل يلعب
فـلا الـطفل ذا عـقـل يـحـنـو بـــه
ولا الـــطـــائـــر ذا ريـش يـهـرب

قــل لــمــولاتـــى الـتـى أعـبـدهـا
هـل درت مـا صـنـعـت بـى يـدها
أكـلـمـا أطـــفـــأت نـار الـهـوى
وهـــبـــتـــنـــى **قـــبـلـــة** تـــوقدها

.... وما أن جاءت فى شعر ابن عبدوس كلمة الـ " قبلة " حتى ألقت ولادة للشاعر العاشق قبلة ساخنة على بساط الريح أرسلتها له من بعيد مع طرفة عين تشع خبثاا . . فـى أثنـاء ذلك كانت كؤوس الخمر تدور على الحضور وسلال التفاح . و خرير النـافورة الصـغيرة التـى تتوسط قاعة الأنس يحدث صوتا عذبا وكأنـه ألحـان الطبيعـة تعزف للشعر المنثور من أفواه المعجبين بولادة .

.....

يصيح حاجب باب الولادة ...

- الأمير المستكفى ..

دخل رجل ربعة لـه لحيـة سوداء تتخللها شعيرات بيضـاء فتبدو رماديـة . وشـارب نـاعم منساب على اللحية التى يحملها وجه ممتلـىء تعلـوه عينـان واسـعتان تنمـان عن الشـراهة لأى شـىء ..! .. الشراهة للمال . للسلطة . للنساء . لأى شىء وكل شىء !! .

وقف جميع الحضور من شـعراء وأدبـاء وفلاسفة وقـادة بجيش الأمير .. أسـرعت الـولادة إلى أبيها فارتمت بأحضانه .

سلم المستكفى على الجميع ثم قال لولادة هامسا ..

- اهتمى بـ " فهر بن الأشرم " ... ! .

لكن من يكون فهر بن الأشرم هذاا ؟ ...

انـه زعيم قبائل صـنهاجة البربريـة بـالمغرب , راسـله المستكفى ووعده برغد العيش فـى الأندلس بعيدا عن بيداء افريقيا القاحلة - إذا ساعده فى حربه على محمد المهدى . وجـاء فهر إلى الأندلس ليتلقى فيها صدمة لبربريته أطاحت بعقلـه بعدما رأى من قصـور ونعيم وبسـاتين وأنهار كأنها لوحة فنية رسمتها يد فنان بارع العبقرية .. وسبحان الخالق .

وكان الخليفة محمد المهدى لا يحب هؤلاء البربر ويرى أنهم طالما ساندوا العامريين وأيدوهم , بل انه أهان أحد زعماءهم الكبار ويدعى " زاوى بن زيرى " وطرده من الزهراء مضروبا حتى مالت عمامته من فوق رأسه . وحين نبهه أحد اتباعه أن عمامته قد مالت عن رأسه . قال " زاوى " ..

- لو كان لى قوما فسوف يقومونها ...

وكان يعنى بذلك أن عصبيته من بربر الأندلس الذين استدعاهم العامريين سوف ينضمون إلى عصبيته من بربر المغرب الذين استدعاهم المستكفى . ويضربون الخليفة شر ضربه ويقتلوه شر قتلة بعد أن يخلعوه .

كان فهر غليظ القلب من أجلاف الصحراء . لم يمدنه الإسلام . وكثيرا ما تسائل قائلا ... " بماذا أفادنا هذا الدين الذى أتانا من مشارق الدنيا إلى مغاربها !! " .. لم يكن يعرف من الإسلام سوى انه جاء ومعه فتوحات جديدة وفرصة لزيادة أملاك القبيلة .

كانت " ولادة " تعزمه فى مجالس الشعر والطرب والنساء فيسكر حتى الثمالة ويأكل اللحم بطريقة الهمج ملوثا فمه ولحيته وشاربه مصدرا صوتا أثناء الأكل يشبه الأسد حين يزوم . وقد أقطعه المستكفى أراضى شاسعة خارج أسوار طليطلة ليستوطن فيها مع رجاله وأوصاهم بحراسة المدينة من أى هجوم مباغت قد يدبره الخليفة مع قواته . . كان المستكفى يحتاط دائما ليوم آت يسلب فيه الخلافة من محمد المهدى . وكان يقول أن الخليفة يمتلك العسكر ولكنه لا يحسن السياسة .. ويضيف ...

- " العسكر دون سياسة كالسلاح المثقول دون من يستخدمه . والسياسة دون العسكر كالمحارب الماهر دون سلاح , لا يصلح " .

- **المستكفى** : مرحبا بصديقنا فهر بن الأشرم فى بلادك .

- **فهر** : مرحب بالأمير . أم أقول أمير المؤمنين ؟! .

- **المستكفى** : لا تتعجل قطف الثمرة يا فهر . سوف أكون أميرا للمؤمنين عما قريب .

- **فهر** : رجالى ينتظرون اليوم الموعود لدخول قرطبة .

- **المستكفى** (ضاحكا) : وأنا أعد رجالك بلحم غزلان قرطبة . ونساءها البيض !! .

تضحك ولادة ويضحك الجميع ....

- **المستكفى** : يا ابن زيدون . كيف حال طواغيت قرطبة ؟ .. المهدى ومهران وفائق ورجال تلك الشجرة المتهالكة التى سأجتثها مع حلفائى فهر بن الأشرم وزاوى بن زيرى .

- **ابن زيدون** : اعتاد الطغاة أن ينظرون لشعوبهم المستعبدة مثل صبى يعبث بلعبته . فهو يصفعها أو يتندر عليها ولا يتوقع أن تتبرم اللعبة أو تتألم . . بل أحيانا ترقص الشعوب وتضحك لطاغيها كما تضحك وترقص الدمية التى تدار بخيط رفيع .

- ... ومن الغريب أن الخليفة صار معزولا عن أمانى شعبه إلى درجة هددت سلامة عقله , فهو يخطب فى الناس ويتحدث إليهم عن مشاريع النهضة التى تمت على يديه ! , والبطالة التى حوصرت ! , والدخل العام ومستوى الفرد ! , ثم يخرج بيانا طويلا ويقرأ عن أرقام لمعدلات التطور والنمو لا أساس لها من الصحة و **كأنه يتحدث عن شعب آخر** . . وبعد ذلك يتحدث عن الثورة التى أتت به إلى العرش ويذكرنا دائما بالنكبات التى شهدتها البلاد فى عهد النظام السابق . وكأنه يقول لنا ضمنيا أن علينا أن نحمد الله الذى أكرمنا به وبخلافته .. فقد أضحى المهدى نموذج **لإنفصال الديكتاتور** .

- ... وكثيرا ما أخذ قرارات خاطئة تمس صالح الأمة ثم يرجع فيها حين تشتعل التظاهرات المنددة بها , ويكون رجوعه فيها من باب أن " الرجوع إلى الحق فضيلة " , أما كان التدبر الصالح قبل إصدار القرار أحق من الرجوع فيه بعد الدماء التى تسفك فى الشوارع والتظاهر . وأحيانا ينقلب أداءه إلى العكس فينسى الحق وينسى الفضيلة ويصر على قراره الخاطىء وعناده المزموم ... وكان الأولى به قبل هذا وذاك أن يستشر أهل الخبرة وأن يتجنب من يسميهم أهل الثقة اللذين سوف يهلكوه ويأخذون الخلافة إلى البوار .

- ... وانه لمن المثير للغيظ والسخرية أن محمد المهدى – قبل أن يولى أمر المسلمين – حين كان يمشى فى الأسواق ويتحدث إلى الناس , كان يندد بنظام شنجول لأنه يقترض الأموال من الروم والممالك المسيحية فى الشمال . وكان المهدى يقول بأن الإقتراض حرام شرعا و من شأنه أن يرتهن القرار الوطنى للأندلس لصالح المطامع الخارجية . . وحين تولى الخلافة كان أول شىء يفعله أن مد يداه ليطلب القروض من الروم !!! . لكنه يجد دائما من الشيوخ والفتاوى ما يتوافق مع هواه فهم يحرمون الإقتراض للنظام السابق ويحللوه لمحمد المهدى ونظامه ! .

- **المستكفى** : وهل وجدتكم أثر تلك القروض على أهالى قرطبة ؟ .

- **ابن زيدون** : بالطبع لا يا مولاى . وهو ما يضع علامات الإستفهام حول تصرف الخليفة .. اذ أين ذهبت هذه القروض وأين ذهب المال الذى احتجنوه من النظام السابق وتصفية ودائع أل عامر .. ؟ .. وأغلب الظن أن أطنان المال تذهب إلى خزائن ولى الأمر واتباعه ! ..

استأنف ابن زيدون ...

- ... **اننا فى بلاد العرب لدينا استعداد دائم للتنازل عن السيادة فى سبيل الرئاسة** . أى نتنازل بإرادتنا الحرة عن السيادة للإسبان والفرنجة والروم على شرط أن يتركوا لنا حرية

الرئاسة والتسلط على شعوبنا المقهورة . والنتيجة أن تتضاعف مركزية السلطة وبطشها فى الداخل وتزداد هيمنة الخارج على السلطة وعلى مقدراتنا وأمن اوطاننا .

- ... لست أدرى ماذا يفعل العرش بأصحابه ؟ . كيف يتحولون من الكرم إلى البخل . من التواضع إلى الصلف . من كراهية الأجانب إلى التزلف لهم . من أجنحة الملائكة إلى وجوه تعلوها قرون الشياطين ! .

- **الولادة** (ضاحكة) : سوف تعرف سحر السلطة يا ابن زيدون حين يوليك أبى الوزارة بعد استخلافه . وحين إذ سوف تدرك إجابة سؤالك عما يفعل العرش بأصحابه !! .

- **المستكفى** : وماذا عن تنظيم الذلفاء .

- **ابن زيدون** : يتصورون انهم حملة الحرية ومشعلوا الثورة ونواب الشعب . يعارضون الخليفة حين يحبس عنهم الأموال ويثيرون الشارع عليه . ثم فجأة يهدأون وتختفى صيحاتهم ضد محمد المهدى حينما تصلهم أكياس الدنانير الذهبية بواسطة الحاجب " بزواج " .. تنظيم الذلفاء أشبه بإمرأة تشتم فى سيرة زوجها للجيران وتنعته بأسوأ النعوت ثم تسارع إليه حين يأتيها ليلا فتسبقه إلى الفراش فاتحة أحضانها ! .. أى حال من النفاق وسياسة الوجهين التى صرنا نعانيها ؟ .

- **المستكفى** : عد نفسك منذ الآن يا ابن زيدون أن أوليك الوزارة حين ندخل قرطبة معا .

(4)

يدخل رسول الملك أوردونيو – ملك أوستورياس – إلى قاعة العرش بالزهراء لينحنى أمام الخليفة ويقدم له الهدايا .. يحيط بالمهدى كبار رجال دولته .. رئيس الوزراء الحاجب بزواج , و جؤذر قائد الجيش , ومهران رئيس الشرطة وكبير البصاصين , والوزير فائق ناظر الحسبة الشريفة , والشيخ أحمد بن برد إمام مسجد قرطبة .

- **رسول الملك** : انقل إلى مقام عظمتكم تحيات الملك أوردونيو أيها الخليفة الحسيب النسيب . راع الدين والدولة . تاج الفخار وفرع الدوحة القرشية . صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية . السيد ابن السيد . والشريف ابن الشريف . السيد الجليل المبجل . سيد الجميع . أمير المؤمنين . عمت بركته الناس أجمعين . بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة . والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة . تعرض لنا الشرف بتقديم الهدايا والتحف والجوهر إلى أعتابكم السنية لإظهار عاطفة الإخلاص وشرف الشعور نحو الأندلس وخليفتها .

استطاع الإسبان مبكرا أن يتفهموا اللغة التى يحبها عواهل العرب من تعظيم وتمجيد . فأصبحت كل رسائلهم إلى ملوك المسلمين وطواغيت الشرق تبدأ بالمبالغة فى المديح والثناء وتنتهى بـ " الرجاء والطلب ! " رجاء التنازل عن مطلب من مطالب سيادة الدولة , ويكون على العاهل العربى أن يبادل كرم الغرب وهداياه بكرم أكثر جودا وإسرافا .. فنحن العرب أهل

الكرم !! .. والغريب أن لغة الخطاب إلى العرب تعلمها الإنجليز من الإسبان ثم تعلمها الأمريكان من الإنجليز . ولم يتعلم العرب شيئا . ! .

- **رسول الملك** : جلالة الملك أوردونيو أرسل إلى أمير المؤمنين ثلاث صناديق من الذهب العينى . ومثلهم من فصوص الياقوت الملون . ومثلهم من الزمرد . وعشرون جارية حسناء . وعشرون صبى . وعشرون فرس . وعشرون ثوب من الحرير .

- **الخليفة** : أبلغ تحياتنا إلى صديقنا الملك أوردونيو وجزيل شكرنا .

- **رسول الملك** : مولاى جلالة الملك يترجى أمير المؤمنين – أعزه الله – أن يمنح تجارنا احتكارات البرسيم فى قرطبة , فنشترى فدادين البرسيم فى بلادكم ونبنى له الوكلات الكبيرة وشون التخزين , وترفع الدولة يديها عن زراعته وبذلك نكفى حكومتكم عناء زراعته وتخزينه و المتاجرة فيه مع أصحاب الدواب . ثم نقوم نحن بتحديد سعره المناسب وبيعه إلى تجار الأندلس . مع الإحتفاظ بنصيب أمير المؤمنين من الأرباح .

- **الخليفة** : لا خاب من استشار .. ما رأيك يا حضرة المحتسب ؟ .

- **فائق** : البرسيم والعلف هما عصب الغذاء للدواب . أى أداة النقل والمواصلات وتموين الحرب أيضا . ولا يوقع أمير المؤمنين قرارا بإحتكار البرسيم لتجاركم ومزراعيكم إلا بنسبة تدخل خزائن القصر الخلافى سوف تصل إلى 50 % من أرباح متجارتكم فيه . على أن تشرف الحسبة " الشريفة ! " على كشوفكم لضمان الدقة فى حساب مال أمير المؤمنين .

- **رسول الملك** : سوف يسعد جلالة الملك أوردونيو أن يوافق على طلباتكم .

- **الخليفة** : ليست طلباتنا – فالخليفة لا يطلب من أحد – بل هى طلباتكم أنتم .. والآن .. اكتفينا بساعة الجد فالنروح عن أنفسنا بساعة الحظ - **أمرنا بالرقص والمغنى** .

يصفق حاجب الباب فتدخل الراقصات والمطربات والمطربين , وآلات العزف والفاكهة والأطعمة والنبيذ المعتق . وتبدأ ليلة صاخبة على شرف رسول الملك أوردونيو والصفقة الجديدة .. ! . . ينزل محمد المهدى من فوق عرشه يتمايل مع إحدى الراقصات , ثم ينادى صديقه " بزواج " قائلا وهو يمزح ..

- هل يضير التمايل بهيبة الخليفة يا بزواج ؟ .

- **بزواج** (ضاحكا) : قليله مباح يا أمير المؤمنين ..! .

ويرتشف أمير المؤمنين بعض الخمر من كأسه ثم يلتقط قبلة من فم إحدى الحسناوات فينتشى - وهو يردد ...

- أهى نشوة الخمر أم ريق الحسناء .

- 7 -

غروب الشمس

ابك كالنساء . ملك لم تحافظ عليه كالرجال

عـائـشـة الـحـرة

(1)

فى ديوانه تحت الأرض بمعتقل المطبق دخل على مهران رجل طويل القامة , لحيته طويلة مدببة كأنه أحد كهنة الصينيين . أصلع الرأس وله شارب ناعم مدبب ومعكوف لأسفل يصل إلى منتصف لحيته . . انه **جمال الدين الخرمى** , الدجال زعيم " فرقة الإسماعيلية المطرفة " الذى استحضره رئيس الشرطة من المغرب ليكون فزاعة الشعب من الإرهاب فيميلون بعواطفهم إلى حكم محمد المهدى .

- **مهران** : كيف حالك يا جمال الدين ؟ . انك تلتزم دائما بميعاد اجتماعنا .

- **جمال الدين** : بفضل ونعمة من أمير المؤمنين . وكيف لا التزم وأنا أخدم ديار الإسلام فى ظل مولانا المهدى .

- **مهران** (مبتسما) : مولاك المهدى ! .. ألا تكفره يا رجل وتكفرنى معه فى دعواك ؟ .

- **جمال الدين** : أكفره أمام العامة بناء على طلبه شخصيا وبرعايتك . ان الرعية تحنو على حاكمها حين يكفره الإرهاب .

- **مهران** : وكيف حال إرهابك ؟ .

- **جمال الدين** : نختطف الفتيات ونصبغهن جوارى . والصبية نجعلهم عبيد ونجندهم فى معسكارتنا . نغسل العقول بالحديث عن الجهاد والفردوس المنتظر والجنة الموعودة فيكون الشاب طائع فى تنفيذ الأوامر ولو طلبنا إليه أن ينشر رأسه بمنشار لفعل .. استحضرنا أنواع مخدرة من نبات " القات " ليأكله الصبيان المخطوفين من أهل دعوتى , ثم أجلس مع كل منهم فى غرفة مظلمة إلا من ضوء خافت , فإذا تاهه الصبى بالسطلان المخدر وكاسات الخمر أدخلت عليه الجوارى العاريات لترقصن أمامه . وأكون قد غطيت وجهى ببردة خضراء لها ثقبان فى مكان العينين . فإذا انتشى الصبى بالعاريات والمخدر أقول له عدة مرات ... **انك على أعتاب الجنة** ...

- ... ثم فجأة آمر العاريات بالإنصراف , وآمر اتباعى بسكب الماء على وجه العنصر حتى يفيق , وأزيح ستائر الغرفة لكى يدخل نور الشمس .. وابدأ كلامى مع الفتى حين أتأكد من استفاقته .. وأقول له مرة أخرى انه لم يكن فى حلم وانما كان **على اعتاب الجنة** , وكان يشرب من خمر الجنة ويجانس بنات الحور فيها , وأوهمه بأننى " المهدى المنتظر " الحقيقى وأن الخليفة فاسق فاجر , واننى استطيع أن أجعله يعيش فى الجنة طول حياته على صورة الكمال والأبدية إذا نفذ العمليات التى نطلبها منه .

- ... وتكون العمليات كما تعلم سيدى هى اغتيال خصوم الخليفة , أو احراق الكتب التى تشجع على إعمال العقل , والاستيلاء على محلات الجواهر , أو التحالف مع مجرمين المطبق اللذين أطلقتهم منذ أيام الثورة لمضاعفة حالة الإرهاب فى البلاد والتهديد بطرد

المسيحيين منها , وترويع أصحاب المتاجر مع المناداة بحكم **جمال الدين الخرمى** .. فتكون النتيجة أن يرفض الناس حكم التطرف ويميلون لحكم الخليفة – أعزه الله – على ما فيه من فوضى ومظالم - أقصد حسب رؤيتهم هم .

- ... وقد أقبل الشباب على دعوتنا إقبال الذباب على النار . فالفقر ينهش أبدانهم جميعا وكلهم يرون فينا المال والمكسب فى الأرض والجنة فى الآخرة . يرون فى دعوتنا عبادة ورضانا قربى . ولو أمرناهم اليوم بالموت لفعلوا . فقد واتت الدعوة إلى الحق والفردوس تربة ظمأة بعد أن ضاق الناس بالضرائب التى يقتضيها المحتسب . نجعل من كل شاب أمير على عشر فتيان وجميعهم رأوا فى دعوتنا عملا مربحا ومكانة ترفع قدرهم إلى الطموح والإمارة بدلا من التنطع فى الشوارع والشحاتة بالأسواق - بالإضافة إلى القربى من الله ! .

- ... أيضا يجتمع الناس فى الحفلات الدينية التى تقيمها فرقتى " الإسماعيلية " . فيحتشدون لمشاهدة الزار وحلقات الذكر والمباخر . وأقلد الخليفة فى موكبه وأدخل الحفل على حصان فيرتمى البسطاء والرعاع على يدى يقبلونها ... ثم أكرر أننى " المهدى المنتظر " الحقيقى وأن الخليفة كاذب .

- **مهران** (ينظر إليه فى مكر) : ... لولا حاجتى إليك لقتلك أيها الدجال حتى يصدقك الناس !!! .. ولكنى مضطر أن أغض البصر عنك .

- **جمال الدين** : اننى واتباعى تحت أمر رئيس الشرطة .

- **مهران** : قرر أمير المؤمنين أن يعهد بولاية العهد إلى ولده . وقد يقابل بالمعارضة من بعض أمراء بنى أمية الذين يريدون **سليمان بن هشام** , وكانوا قد أشترطوا على أمير المؤمنين حين بايعوه بالخلافة أن يعهد بالولاية من بعده إلى سليمان , والآن قد يقدرون أن الخليفة نكث وعده لهم ويريد الخلافة لابنه . . أيضا نخشى من دعايا المستكفى التى تشبه دخان لا نرى ناره , إذ يشيع فى طليلطة أن الخلافة شورى وليست وراثة وانه يطلب الخلافة دون أن يورثها , وهو أمر قد نجد صداه بين العامة فى قرطبة . . ولذا أريدك أن تخلق فتنة بين أهل الأندلس تستعر نيرانها فى صدور اليهود والمسيحيين والمسلمين , فإذا اقتتلوا جميعا وجد الناس ما يشغلهم عن دعايا المستكفى ضد التوريث , بل طاقت نفوسهم لتوريث يضمن الإستقرار حتى لا يحدث فراغا فى السلطة يهيء لمزيد من الدم . . عليك بإحراق المعابد والكنائس فإذا أحرقت دور العبادة لأهل الذمة حنقوا على المسلمين وقد يبادلوهم بإحراق المساجد والتكايا . ولن يسكت المسلمون بالطبع وتكون الفتنة التى نطلبها .

- **جمال الدين** : أترك لى شهرا واحدا يا كبير البصاصين وسوف أجعل الأندلس كلها تموج بالإرهاب والفتنة وتقبل أقدام الخليفة وولى عهده المنشود .

- **مهران** : انصرف الآن . وسوف يصلك رجالى بالمال الذى تحتاجه لتنفيذ مهمتك .

مهران يحدث نفسه ...

- أحسنت الذلفاء حين اختارت محمد بن عبد الجبار " المهدى " للعرش . فإن ضعفه يتيح لى العمل بحرية كاملة . بل يتيح لكل رجال النظام التحرك كما يشاؤون . فاليأخذ الخليفة بعض المال والنساء وهالات القدسية ! . ولنأخذ نحن السلطة على الحقيقة والثروات والأصول .

# # #

انصرف جمال الدين ودخل مجموعة من العساكر بزعيم الوطنيين حسن الحداد

- **حسن** : لماذا أنا هنا ؟ . لماذ تقبضون عليك .

- **مهران** : أنت هنا للخير يا حسن . للخير إن شاء الله .

- **حسن** : وهل يأتى الخير من السلطة أو الشرطة ؟

- **مهران** : لسنا وحوشا يا زعيم الوطنيين . بل اننا مجاهدين مثلك وإن اختلفت وسيلتنا . ونقدر المجاهدين والشجعان أمثالك .

- **حسن** : وهل من الجهاد أن تقمعون المعارضين أحيانا وتشترون ضمائرهم أحيانا ؟ .. هل من الجهاد أن تغلقون باب الإجتهاد فى الدين وتشيعون الخرافات والشعوذة ؟ .. هل من الجهاد أن توظفون مسجد قرطبة وإمامه أحمد بن برد لخدمة السلطان ؟ .. يمتلك الوزراء القصور الشتوية على الأنهار والقصور الصيفية فوق قمم الجبال والشعب فى حالة جوع وتطاحن .. غاب عقل الأندلس فى عهد الخليفة وتاه فكرها فى ضباب القات والخمر . حتى الشعر – فخر العرب وإعلامهم – لم نعد نسمع منه إلا شعر المجون والدعارة والمديح لصنمكم المعبود الذى تسموه أميرا للمؤمنين !! .. أى جهاد إذن تتمسحون به .. اللهم إذا كان الجهاد فى نظركم هو منح الإسبان والغرباء إحتكار البضائع فى بلادنا والنفاذ لهم بموطأ قدم فى أراضينا .

- ... ومن المثير للسخرية أنكم تقيمون ديوان للمظالم فى قصر الحكم يذهب إليه الناس أفواجا كل يوم للتظلم والشكوى لكنكم لا تبالون , وكأن رسائلهم إليكم تذهب إلى أموات .. بت أشك أنكم تسمونه " ديوان المظالم ومكتب الشكاوى " لا لرفع الظلم عن الناس . بل لظلم الناس والتأكد أن أعداد المعذبين فى الأرض فى تزايد مستمر تؤكدها رسائلهم إليكم !! ... أطمئنوا أيها السادة فالخراب فى تزايد .. نسير منه إليه .

- **مهران** (ببرود) : هل انهيت كلامك يا صديقى - الذى داهمتنى به ؟ .

- **حسن** : إنى لأعجب لهدوءك هذا !.

- **مهران** : هل توقعت أن يستفزنى كلامك , فآمر بقتلك .. ؟ .. كلا يا حسن سوف تعيش وتضع يدك فى أيدينا ونعمل معاا لخير الأندلس .

- **حسن** : أياديكم ملطخة بالدماء . فإذا صافحتها كنت خائنا للأحرار ولأمتى .

- **مهران** : إن الخليفة يريد أن يقيم دولة العدل , ولكنك ترى الأخطار محيطة بنا من كل جانب . الإسبان والفرنجة فى الشمال . وبربر المغرب فى الجنوب . والتطرف والإرهاب والمجرمين فى الداخل . هل تعتقدون أن أمير المؤمنين يمتلك عصا سحرية لحل كل مشاكلكم . أم سوف يدعو لكم ربه فى الخلاء فتمطر السماء خبزا ولبنا وأنهارا من عسل .

- **حسن** : ومن صنع التطرف والإرهاب فى الداخل ؟ - أليس أنتم حين لم يجد الشباب معينا ولا عملا إلا الإنضمام لدعوة الأفاق جمال الدين الخرمى وأفرخت المعارضة إرهابا حين قمعتموها .. ومن أطلق المجرمين من السجون ؟ - أليس أنتم بل ان السلطة هى التى حولت خيرة الرجال إلى مجرمين وأرزال حين ضيقت عليهم فى الأرزاق .. ومن جرأ علينا الإسبان والفرنجة ؟ - أليس أنتم حين أوقفتم حملات الصوافى والشواتى بل استسهلتم الطاعة لعدو فى مقابل المال والنصح وأكتفيتم بالإقتتال فيما بينكم .. ان الأمة التى تفقد سروجها وتبيع فرسانها لا تصلح يا سيدى ...

- ... لا تحملوا السماء والمقادير أكثر مما تحتمل , بل هى الإرادة والقدرة على الفعل .. هى الإرادة التى جعلت عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر يؤسسان عرشا تليدا ودولة قوية ثم هدمتموها انتم بتشويه معان الخلافة والإستتار خلف عباءة الدين .

- ... **لقد صدم شعب الأندلس فى دعوة المهدى المنتظر التى دعيتم بها إلى الخليفة وعودة دولة الدين والحق . وما هى حتى أدركنا أن طلب السلطان فى هذه الدنيا يغلب طلب الآخرة . وأن الدعوة مطية توصل إلى الدولة . وبدلا من أن يكون عمل الإنسان سبيله إلى الفردوس الأعلى ينقلب الحال فيصبح الحديث عن الفردوس الأعلى سبيل التمتع بفردوس الأرض** .

- **مهران** : معنى كلامك أنك ترفض التعاون ؟ .

- **حسن** : لست أحمد ابن الشيخ ريحان . منذ الصغر كان طموحه يغلب عقله أحيانا ثم تردهما عاطفته الخيرة ونقاء سريرته . أما أنا فإن عقلى وعاطفتى لا تملكهما مطامح إلا أن يحكم الأندلس أبناءها الذين صنعوا ثورتها ثم استوليتم أنتم عليها بإسم الدين !.. بل من المفارقات أنك كنت عدو الثورة الأول وحامى النظام القديم وقد أصبحت بقدرة قادر المدافع الأول عن الثورة والخليفة معا .

- **مهران** (يصيح) : أنا لا أدافع إلا عن السلطة .. عسكرية كانت أو دينية .. أنا الأمن والنظام ! .. تسقط الدول ويتبدل الملوك ويبقى الجهاز الأمنى . . وقد طلبنا منك التعاون ولكنك رفضت ولم تشأ أن يضع الوطنيين يديهم فى يد عاهل الدولة . ولسوف تتحمل العواقب .

- **حسن** : عاهل الدولة سقطت شرعيته بالدم المراق كل يوم ورفضه الناس . وما إجراءات تجديد المبايعة كل حين وتزوير استفاءات الجماهير إلا مظاهر ضعف وقد أشرفت دولتكم على السقوط . ولن يخدعنا الخليفة بوعوده مرة أخرى لا شرفنى أن أشارككم فى سقاية الأرض بالدم ...

- **مهران** : إذن لو أردت الإستمرار فى معارضة الخليفة فالتنضم إلى تنظيم السيدة الذلفاء أنت ورفاقك .

- **حسن** (ضاحكا بتهكم) : أنضم إلى تنظيم الذلفاء الذى يعارضكم برضاءكم ومباركتكم وتمويلكم . ودعم القشتاليين والأجانب ... لا يا سيدى لن أكون " المعارضة الملخصة لكم ! " .. لن ألعب ورفاقى هذا الدورالملعون .. بل نقاومكم بإذن الله وبإسم الثورة .. .. هل أستطيع الإنصراف أم أن بئر الموت جاهزا !!! .

- **مهران** (يقترب من حسن ببطء وكأنه الموت - ينظر فى عينيه بشراسة - يضغط على أسنانه وكلماته وكأنه يريد أن يؤكدها) : لا يا حسن . لن أقتلك فى بئر الموت . فأثير أصحابك إذا علموا بموتك عندى فى المطبق . بل هو قضاء الله سوف ينفذ إليك بمخدك وفوق سريك وبين أهلك ! . . تستطيع الإنصراف الآن .

ما أن انصرف حسن حتى أرسل مهران الصقلبى من يأمر جمال الدين الخرمى بأن يقتل حسن فى مخدعه " ميتة قضاء وقدر ! " ..

(2)

تململ الخليفة فوق سريره العريض . انه نفس الكابوس الذى يؤرقه منذ عدة أيام . يحلم بأن رجب المجذوب يصيح ..

- **اقتربت نهاية الضبع** .. **اقتربت نهاية الضبع** ... ثم يقترب " رجب " من عرش الخليفة ويشعل فيه النيران . ومن وراءه الآلاف من شباب الأمة . ولا يستطيع حرس الزهراء لهم دفعا فيتهاوى العساكر كما تتهاوى قطع الشطرنج .. ينادى الخليفة على " شمس " بأعلى صوت ويجرى على مخدعها لتنقذه لكنه يجدها ميتة ..! .. يهزها فلا تجيب .. ! .

- **شـــمـــس .. شـــمـــس**

صرخ الخليفة , واستيقظ من نومه مفزوعا .. يدخل عليه الحراس شاهرى السيوف حين سمعوا صوت صراخه ..

- ما بك يا أمير المؤمنين ؟ .

- **الخليفة** (يلتقط أنفاسه المخنوقة ويرتشف شربة ماء من كأسه الذهبى) : لا شىء . لاشىء .. أين شمس . أريدها الآن .

- **كبير الحرس** : أمر مولاى .

حضرت شمس إلى غرفة مولاها , وعليها إمارات الإندهاش وبدأ وجهها يميل إلى الشحوب . انها لم تنم منذ أن اختطفوها . لا تأكل إلا قسرا وأقل من القليل . تبدل جسدها إلى النحافة الشديدة ..

- **الخليفة** : شمس . هل انتى بخير ؟ .. حلمت اننا نموت جميعا فى نيران ذاك القصر المنيف . رجب المجذوب سيحرقنا !!!! .

- **شمس** (أجابته بصوت واهن) : وهل يعرف أمير المؤمنين رجب المجذوب ؟! .

- **الخليفة** : بالطبع أعرفه . كنت ذات يوم أتجول بين السوقة . أستمع إلى أحلامهم . أتوق إلى حكمهم . كثيرا ما روادتنى الأمانى فى تحقيق آمالهم , لكنى كنت أراجع نفسى بأن هذا الشعب لا يستحق . ثم اعترف أيضا أن مواهبى فى الحكم والإدارة لا تصبو إلى مستوى أحلامهم . لكن هيبة السلطان وبريق السلطة كانوا مثل نار تعتمل بصدرى . فكنت أرى أن قدراتى قد توصلنى إلى العرش يوما ولكن لن تصل بالأندلس إلى الذروة . . فى خضم هذا السجال بعقلى كان يقفز إلى المشهد رجب المجذوب ليحذر الناس من **الضبع القادم** الذى سوف ينكل بهم وبأحلامهم . كان المساكين يحبونه ويعطفون عليه إلا اننى كنت أهابه وأخشاه . كان يرمقنى بنظرة حادة حين يلقانى تنفذ إلى أعماقى وتنتهك أستارى وتسبر غورى .. كأنه مضطلع على النوايا .. يقولون أن رجب مكشوف عنه الحجاب - والله أعلم .

- **شمس** : وماذا بعد يا سيدنا ...

- **الخليفة** (ضاحكا) : بعد ذلك يأتى عسكر مهران الصقلبى ليتقبضوا على ... !! .

- ... لكن رجب المجذوب أطال حواره معى هذه المرة فى ذاك الكابوس الرهيب ... سألته لماذا يحرق قصرى وعرشى ؟ ... أجاب لأننا الطغاة الذين نهيىء الأرض للغزاة ونحرثها للمحتل . قال لى أن ملك المسلمين سوف يسلب منهم فى هذه الديار .. وتساءل رجب ...

- ... كيف تسمحون بسلب ملككم وأنتم أقرب الناس إلى الرسول ؟ . وكيف تدعون أنكم أمة محمد وتشربون ما حرم الله عليكم وتلبسون ما نهاكم عنه النبى من حرير وديباج , وتركبون ما حرم عليكم من سروج الذهب والفضة ؟ . مع أن النبى لم يفعل شيئا من هذا على الإطلاق . تكلفون أهل البلاد بما لا يطيقون وتفسدون الدين على الناس . تحرقون الزرع والأغصان وتدخلون فى صفقات مشبوهه مع أعداء الله .

استأنف الخليفة ..

- لكن دعينى اسألك . لما كل هذا الشحوب . ألم تعجبك جنان الزهراء ؟ . كان وجهك مثل البدر الصبوح . هلال فضة مولود . شفتاكى ثمار كريز . عيناكى عين قط مشاكس .. ما بال الغصن الرطيب جف نداه وأضحى فرع شجر نحيف يوشك على التهالك ؟ .

- **شمس** : أريد أهلى يا أمير المؤمنين . قفصك الذهبى يخنقنى يوما عن يوم .. دعنى أقبل قدميك - اسمح لى بأن أعود إلى أبى وأمى وأخوتى .

- **الخليفة** (رفع شمس من على الأرض قبل أن تقبل أقدامه) : سأفعل يا شمس . أعدك بذلك . سوف ترجعين إلى أسرتك . لن تموتى فى جنة الخوف هذه لن تؤرقك الكوابيس التى تؤرق مولاكى . رغم انى أعترف بأننى احببتك .. وأعترف انى تورطت فى هذا الحب حتى لم أعد أستطع له فكاكا ولا كتمانا . برغم ألوف النساء والتجارب وانتصارى فوق الصدور و الأشداء , إلا أن سقوطى فى غابات عيناكى هو الإنتصار .

- ... انك طفلة جميلة نسفت الجسر بين اتزانى وجنونى . راودتنى نفسى أن أقتل كهرمانة بعد أن استحضرتك إلى هنا . لكنها الآن تستحق منى الشكر , فقد جعلت قلبى يخفق بالحب لأول مرة . أنا فى الماضى لم أعشق , بل كنت أمثل دور العشق . لم أعرف قبلك انسانة هزمتنى داخل مملكتى . نزعت عن وجهى أقنعتى . هل أنت حورية أرسلها ليا البحر أم رمحا نفذ إلى أعماقى . أشعر معك اننى سئمت الزهراء والسلطان وبأنى أريد أن نجرى سويا بجوار أشجار بلا عمر حيث الأزمان الخرافية .

- **شمس** : انك تصف الحب بمنتهى الدقة يا أمير المؤمنين .

- **الخليفة** (يمسك بيدها) : اننى لا أصف الحب بل أتنفسه .. انه عمرا داخل العمر .. الحب لا يذهب العقل إلا ليستحضر القلب . أوله داء وآخره دواء . يحجب عن أبصارنا الظاهر ليستحضر الغائب . يعطى للبعير جناحا وللظبية أنيابا تعقر بها السبع . يوحد بين النسر والحمامة والذئب والحمل والقاتل والقتيل ..... اهههههه انا القتيـــل بحبك يا شمس الشموس .

- ... دلينى عن الحب فى صورة من صوره ومعانيه أيتها الشمس التى تنير حياتى .

- **شمس** : لا أجد للحب وصفا إلا ما قاله ابن حزم يا مولاى .

- **الخليفة** (مبتسما - يلمس على شعرها الذهبى) : وماذا قال على بن حزم يا حبيبة مولاكى ؟ .

- **شمس – تروى عن ابن حزم** ...

"" من علامات الحب إدمان النظر فترى المحب لا يطرف , ينتقل بتنقل المحبوب , وينزوى بإنزوائه , ويميل إليه حيث مال .. ومن علاماته الإقبال على المحبوب بالحديث ,

والإنصات لـه إذا حدث , وتصديقه وإن كذب , وموافقتـه وإن ظلم , والشـهادة لـه وإن جـار , والرغبـة فـى اتباعـه كيفمـا سـار .. والإسـراع بالسير نحـو المكـان الـذى يكـون فيـه , والتعمـد الجلوس بقربه والدنو منه , وطرح الأشغال الموجبة للبعد عنه , والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته , والتباطوء فى المشى عند القيام عنه .

ومن علامات الحب روعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة , ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة . ومنها أن يجود المرء بالبذل لكى يبدى محاسنه . فكم من بخيل جاد , وجبان تشجع , وغليظ ترأف , وجاهل تـأدب , وفقير تجمل , ومصون تهتك , وشايب تفتى , وناسك تفتك . . أيضـا كثرة الغمز الخفى , والميل بالإتكاء إلى المحبوب , وتعمد لمس يده عند المحادثة , ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة , وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء , وتحرى المكان الذى يقابله .

والفرق بين هجر الأحباء وهجر الأعداء , أن الأحباء لا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة , وأهدرت المعاتبة وسقط الخلاف , وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة . هكذا فى الوقت الواحد مرارا . وهذا يكون عن تكافء فى المودة وائتلاف صحيح . . وانك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام فى أخباره ويجعلها هجيراه ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها , ولا ينهنهه عن ذلك تخوف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر .

ومن آياته حب الوحدة والأنس بالإنفراد . والسهر الطويل حتى حكى الشعراء أنهم رعاة الكواكب وأمعنوا فى وصف طول الليل وبهاء القمر . ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه , وحفظه لكل ما يقع منه . وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة , وتتبعه لحركاته . وتجد البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا , والغافل فطنا "" .

- **الخليفة** : لو كانت الناس مثلك يا شمس لكانت الحياة أكثر جمالا وبهاءا . ولكانت النفوس أكثر حبا وصفاءا . ولما كانت الأحقاد والمؤامرات والدسائس والمطامع . ولكنت أنا خلقا آخر وسيرة أخرى . ولأكتفيت من الدنيا بلقمة هنيئة . ونزهة برئية . وبعض أبيات الشعر من الغزل الطاهر الرقيق قالها شاعر فى فتاة نقية مثلك .

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت .. وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيا مقلتى الدمع عليها اسكبى دما .. ويا كبدى الحرا عليها تقطعى

.....

طرقا خفيفا على باب غرفة الخليفة . أسرعت شمس لتفتح الباب بعد إذن مولاها .. يدخل أحد الحرس ومعه رسالة مختومة بالشمع الأحمر ... يقول الحارس أن الأمر عاجلا إذ أصر رئيس الوزراء " بزواج " أن تدخل الرسالة إلى أمير المؤمنين على الفور وفى أى وقت . . فض الخليفة الرسالة ليجد فيها .

- **ان واليكم على إمارة دانية – مجاهد العامرى – قد استقل بها وأعلن نفسه ملكا عليها .**

(3)

استطاعت دلال أن تنفذ مهمتها بمنتهى الدقة , فامتثلت إلى أوامر كهرمانة وأرسلت إلى عدوى ثياب شمس ومعها رسالة تفيد بأن ابنته مخطوفة فى قصر الخلافة بأوامر من محمد المهدى بالله . وأنه يجبرها قسرا على دخول مخدعه كل ليلة .. ان ولى الأمر يغتصب أوطانكم وحرمكم .

أسرع عدوى إلى دكان الشيخ ريحان حيث يعمل أحمد فى مساعدة والده .. قص لهم ما حدث من اختطاف أمير المؤمنين لشمس الشموس ...

- **عدوى**(يبكى وينتحب - انقسم ظهره بعد اختطاف شمسه) : هو دة الخليفة اللى خسرتوا أهلكوا وناسكوا عشان خاطروااا ... هو دة المهدى المنتظر اللى صنعتوا حملة شعبية تبشر بعهده وتقاتل المعتصمين والأحرار . . ان أمير المؤمنين لا ينهش لحم أعداءه فقط يا سادة بل لحم أحباءه ومساعديه أيضا ! .. ألم تقل يا ريحان أن المهدى سوف يزوج أحمد وشمس من مال الخلافة ويشرف الفرح ببهاء طلعته . ها هو يختطف شمس . هل هذا هو الإخلاص والحق والعدل والإنصاف الذى تتحدثون به ؟ . . أنظروا إلى حائط دكانكم انكم تعلقون لافتة كبيرة رسمتم عليها سيف تعلوه عبارة المهدى المنتظر ... ها هو المنتظر .. ها هو المنتظر ...

أسرع أحمد ليخرج قراب سيفه من دولاب بالمحل . استله . وانطلق إلى محل حسن الحداد . حكى له عن اختطاف شمس . أمسك حسن بأكتاف أحمد – صديق عمره – وطمأنه بألا يخشى شيئا سوف يحضرون الشمس إلى سماها بالقوة . . خرج الاثنان شاهرى السيوف إلى كل بيت يدقون أبوابه أو محل يستنفرون عماله .

- يا أهل الإسلام . يا أهل العروبة . أعراضكم تنتهك بإسم الدين والديان .

رجب المجذوب يصيح فى الشوارع ..

- اقتربت نهاية الضبع وحانت ساعته .. اقتربت نهاية الضبع وحانت ساعته

فرقة المهدى المنتظر المؤيدة للخليفة بزعامة أحمد انضمت إلى الوطنيين الأحرار بزعامة حسن . عاد الأشقاء إلى ميادين الحرية يد واحدة . تتجدد الثورة . لن يمتطيها الضبع بعد اليوم . سوف يحكمها أصحابها حملة لواء العدل والحرية والمساواة والإخاء .

لم يصدق محمد المهدى فى أى من وعوده . ولكنه صدق فى شىء واحد ... هو أن **العامة تغار على الأعراض غيرتهم على دينهم وأوطانهم** .. شعب الأندلس يغلى ثم يغلى ثم يفور ,

فيظنه الأحمق عاجزا عن الحركة وإذ بالزالزال يضرب قصور الترف وقلاع الظلم .. ماذا يتبقى من ظلم بعد اختطاف أولادنا من أحضاننا ؟ !! ...

حين وصلت أخبار الثورة إلى مهران الصقلبى فإنه أسرع بمراسلة " الذلفاء " . وبخها وعنفها . كيف تشتعل المظاهرات بهذه السرعة دون علم من تنظيمها . أليس هذا التنظيم يسيطر على الشارع تحت اسم المعارضة بمباركة من الخليفة . ألا يضم كبار التجار والحرفيين وممثلوا الطوائف . أليس أفراده عيونا لكبير البصاصين . كيف لم يلحظوا تغير مسبق فى إيقاع الشارع ليبلغوه لرئيس الشرطة . كيف ؟؟؟ .

أجابت الذلفاء بأن الثورة اشتعلت دون ترتيب أو نذر تشير إلى الحركة . إنما هى لحظات حتى اجتمع المئات خلف أحمد ريحان وحسن الحداد وسحبوا من وراءهم الآلاف .. وانها حاولت أن تحتوى المتظاهرين بما لها عليهم من دالة منذ ثورتهم الأولى على عهد شنجول ولكنهم لم يستمعوا لها , واعتبروها معارضة تحالف النظام وتعقد معه الصفقات . بل اتهموا شيوخ الطوائف والحرف بأنهم اتخموا بالثروة من مال الخليفة حتى صار كل عملهم هو احباط حمية الشباب – بإسم الحرية – لصالح ذاك النظام المهترىء المختبىء فى عباءة الدين .

فى محاولة من الأمن لإحتواء الموقف راسل مهران قائد الجيش جؤذر الأموى ليقمع الثورة . ولكن جؤذر اعتذر لأنه لا يحب أن يقحم القوات المسلحة فى أمور داخلية .. كان مهران يدرك أن الأمير المستكفى قد احتوى عصبية جؤذر من القيسية وأن العرب ترى أن وطن الرجل عصبته تصونه من ظلم السلطان أو يكون له بها السلطان . وعلى ذلك فإن قائد الجيش لن يعطى أوامره بدحر الثورة لأن زعماء عصبته قد صارت لهم الضياع فى طليلطة وأصبح جؤذر نفسه يمتلك منها الكثير . بل ان زعماء القيسية لهم دالة على جؤذر بحق الخؤولة تفوق ولاءه لخليفته . وبسرعة بديهة الفرسان والخونة معاا راسل جؤذر المستكفى ليتحرك بقواته نحو قرطبة إذا آن قطف الثمرة .

أرسل مهران إلى جمال الدين الخرمى زعيم المتطرفين لكى ينجز فى قتل حسن الحداد بأى وسيلة شاء . وقد أجاب الخرمى . وماذا يفعل قتل حسن الحداد وقد أصبحت البلد كلها وراءه .. !! .

وأخيراا لم يجد مهران بد من التحرك لإعلام الخليفة بالخبر , فسار نحو الزهراء فى ثياب **" بائع بليلة "** يركب فوق عربة يجرها حمار عليها قدرة يتصاعد منها دخان هذه الأكلة اللذيذة . . كان مهران خبير بوسائل التخفى والتنكر والميكياجات وقد خشى أن يفتك به الناس اذا لاحظوا انه رئيس الشرطة , كما علمته تجربته فى الثورة السابقة انه لا جدوى أن ينزل لمقاومة الشارع على حصانه وفرسانه لأن الأمن وحده لا يقمع ثورة .

وهكذا تحول المطبق الرهيب من معتقل إلى مكتب بريد يراسل أعوانه وعيونه فى الأمصار وكلهم يردون بعجزهم ... أإلى هذا المدى تكون نظم الطغاة هشة ؟ .. نرتاع من العساكر والسلاح والسجن والقمع ثم نكتشف فجأة أن جبل الجليد تذيبه سخونه الثورة اذا اجتمعت على قلب واحد . . **المشهد يتكرر دائما وعلى مر العصور وعلى طول التاريخ بتعدد**

صحفاته ينهار التنين الأمنى الموالى للنظام ضد شعبه وما هى إلا أيام حتى نكتشف أن التنين ليس إلا خرافة من عالم الأساطير .

# # #

كانت قرطبة تغلى . لكن الزهراء لم تكن تغلى , فالخليفة يعيش منعزلا عما يجرى خارج أسواره مشغولا فى مجالس المنادمة . يستحم فى حمام بخار وبجواره الحاجب بزواج – صديقه القديم ورئيس وزراءه الحالى – يتسامران فى المياه الدائفة المزينة بقطع صغيرة من الورد الأحمر والمعطرة بالمسك . تتصاعد منها شبورة البخار فتغشى الأبصار . بل تغشى على نور البصائر - فلا يرى الحكام ما يدور خارج حمامات قصورهم الفاخرة ! .

- **بزواج** : لم تخبرنى يا أمير المؤمنين بحق الصحبة بيننا . لماذا " شمس " بالذات التى استولت على قلبكم الكريم ؟ .

- **الخليفة** : انا نفسى لا أدرى لما أحببتها . وكأنها قدرى . خلق فؤادى ليعشقها ويستقبل حبها كما خلق الغمد ليستقبل السيف . تعاملت معى وكأنى رضيع عمره شهران تقدم له لبن العصفور والألعاب والأزهار . وأبهى ما فيها انها لا تعلم أن براءتها تحتوينى فتتصرف دون تكلف أو اصطناع . رائعة الحضور . انها فعلا " شمس الشموس " إذ يطلع النهار من مرايا وجهها . . أجدنى إذن ضد كل التعاريف فى الحب أو التحرى وراء أسبابه , فهى جميع القوالب والمذاهب والأسباب .

- **بزواج** : ألم تحس يا مولاى برغبة فى عبور مضايق جسدها التى لم يتطلع عليها انسان , فتتعرف على بداية أشياءها ومنتهاها ؟ . ألم تستشعر الشهوة لتسافر فوق دروبها أو ترسو بمراكبك فوق شواطئها الرملية الناعمة ؟ .

- **الخليفة** : تنتابنى لذة فى الإمساك عنها تشابه لذة الصائم حين يمسك عن الطعام وهو قادر أن يأكل .. الحب قصيدة من قصائد الغزل حولناها بالجنس إلى نثر ردىء . أكلما أحب رجل امرأة فرض عليها الإستسلام لشهوته أو - قل لوضاعته ؟! . ان عشقى لها يجعلنى أخاف عليها من جوارحى أن تجرح جوانحها . . ولا أخفيك أننى على يقين من رفضها لى فى قرار نفسها .

- ... لا يقتلنى الآن إلا حريتها التى وعدتها بها . أعلم أن فى ذلك خطر على واستجلابا لسخط العامة إذا علموا بإختطافها من قبل قصر الزهراء . ورغم ذلك لا أستطيع أن أتحمل حزنها وكمدها على فراق أهلها وعريسها . غرست شمس فى ضلوعى سكين فضة سوف يقتلنى يوما لكنى مع الحب حين يقتلنى .

كان الخليفة يسند ظهره ورأسه إلى مسند موضوع على جدار حمام السباحة وجسده ينسحب فى المياه الدافئة والبخار , وتقوم إحدى الحبشيات بتدليكه فى كتفه وظهره ثم تسكب عليه مزيدا من زيت الكافور ذو البلسم والرائحة الهادئة فينام فى حالة من النيرفانا العميقة

والنعيم المقيم . . لكن استرخاءه مع رئيس وزراءه لم يدم طويلا , إذ دخل عليه حارسه ليخبره بأن رئيس الشرطة على الباب .

- **أدخل يا مهران** ...

صاح الخليفة

- **الخليفة** (ضاحكا) : ما هذه الملابس الرثة يا رئيس الشرطة . هل سرقت ملابسك الفاخرة فى سوق قرطبة .. انها فعلا لأضحوكة الزمان أن يسرق رئيس الشرطة !!! .

كان بزواج يضحك .. فهى آداب البروتوكول أن يضحك الجميع إذا ضحك ولى الأمر وأن يرتسم العبوس على وجوهم إذا عبس السلطان أو تجهم . لكن حالة مهران النفسية كانت محاصرة بالتوتر بأكثر تحتمله أعراف القصور . فكان متجهما ولم يشارك الخليفة ورئيس الوزراء الضحك .

- **مهران** : كارثة يا أمير المؤمنين .

بزواج لا يزال مستمرا فى الضحك والسخرية يلعب فى الماء والورد العائم على سطحه ... يصيح قائلا ردا على توتر مهران ...

- الخليفة محمد المهدى هو أمير المؤمنين وغير المؤمنين . الأتقياء والفاسقين . الصالحين والطالحين . الطائعين والعاصين .

- **الخليفة** : أخلع ملابسك يا مهران وأنزل معنا إلى المياه . ولكن قل لى أولا بحق الله . ما دعاك إلى ارتداء هذه الثياب الرثة .. سرقت وتتحرج أن تبوح أليس كذلك ؟ .. وما تلك الكارثة التى تتحدث عنها .

- **مهران** : ثورة يا مولاى . ثورة . امتلأت نفوس العامة من تردى أحوالها وضياع آمالها فى المهدى المنتظر . إرهاب وتطرف . وفتنة طائفية . وبطالة . وفقر . وفوضى . وقمع . ورغم ذلك كان الأمن يسيطر بالجواسيس والعيون على تلك النفوس الثائرة ويراقب شاردها وقاصيها ودانيها .. ولكن جاء خطف شمس ليكون النقطة التى أفاضت الكيل والقشة التى قصمت ظهر البعير ..

الضحك والسمر والهزل الذى رفل فيه الخليفة مع صديقه منذ دقائق قد تبدل إلى دهشة . بل الغريب انهما استشعرها أن المياه الدافئة قد انقلبت إلى سقيعا يلسع نصفيهما السفلى .. ألقى الخليفة بيد الجارية الحبشية التى تدلكه إلى الخلف . ثم قام مفزوعا من حمام السباحة . لفه الخدم بباشكير كبير . وفعل بزواج نفس الشىء .

- **الخليفة** : أعد علينا ما قلت يا مهران ..

- **مهران** : أقول أن شمس لم تعد فتاة عادية مثل أى بنت . بل صارت شمس تمثل حرية هذا الشعب . بل تمثل الأندلس كلها .

- **بزواج** : الأمر بسيط يا أمير المؤمنين . أعطيهم شمس وننتهى ! .

- **مهران** : الجماهير لم تعد تنادى بشمس فحسب بل تنادى بسقوط النظام ... يقولون فى نداءهم ...

عودى يا شمس الذهب .. يسقط نظام أبا لهب

- **بزواج** : هل جننت يا مهران .. كيف تشبه أمير المؤمنين – أعزه الله بأبى لهب الكافر .. بالتأكيد الشعب لا يقصد المعنى الذى فهمته أنت . ان وظيفتك كرئيس للشرطة تجعلك تفسر الأمور بنظرية المؤامرة وكثيرا ما تخلط فى الفهم .

- **مهران** (يصيح) : انكما منفصلين عما يحدث خارج أسوار الزهراء . بل خارج أبواب ذاك الحمام .. الجماهير وصلت إلى أبواب القصر والأمن فقد السيطرة .. ألا تسمعان ؟ .

- **الخليفة** (قطع صمته الطويل واندهاشه) : كيف ؟ . كيف علموا بإختطاف شمس ؟ .. قولوا لكهرمانة أن تطلق سراحها وترسلها إلى أهلها فورا ... يعلم الله أنى لا أفرط فيها حتى أفرط فى جزء من نفسى . بل فى كل روحى .

- **بزواج** : ليس وقت العواطف يا مولاى . قد حكيت لى منذ قليل بنيتك أن تطلق سراحها . إذن لم يجبروك هؤلاء الرعاع على شىء .

خرج أحد أتباع الخليفة إلى جناح كهرمانة وأبلغها بأن أمير المؤمنين يأمرها بإطلاق شمس وأن تتركها تذهب إلى أهلها . أدعت كهرمانة أنها ذاهبة إلى غرفة شمس تنفيذا لأمر الخليفة . ثم عادت وأبلغت الجميع أنها وجدت شمس قد **ماتت** ! .

كانت كهرمانة التى تتابع الأخبار فى قرطبة جيدا , قد علمت بما لم يعلمه الخليفة المنفصل عن شعبه . فأخبروها وصيفاتها بأن المظاهرات الحاشدة فى قرطبة تطالب بعودة شمس ورحيل الخليفة .. وقد تحسبت كهرمانة حين يعلم المهدى بمطالب الثوار أن يفرج عن شمس فتهدأ الخواطر . ولذا أرسلت من يخنق شمس فى سريرها - على سبيل الاحتياط !! .. فإذا وجدت ميتة ضاع كل أمل للخليفة فى تسكين الثورة او احتواءها .

بل ذهبت كرهمانة إلى حمام " الإجتماع ! " . لتبلغ أقطاب النظام بموت شمس . وأدعت أن الوفاة جاءت بسبب إصرارها الإضراب عن الطعام .. وحين سمع محمد المهدى خبر موتها . لم يفكر فى ثورة أو مظاهرات أو صيحات بل أسرع إلى غرفة شمس وتبعه مهران وبزواج وكهرمانة . وجدها نائمة كالملاك فى ثيابها البيضاء بين شعرها الذهبى . لم يتبدى

عليها آثار خنق أو تشنج وجه . **وكأن الملائكة استدعتها إلى جوار ربها والمكانة العلوية لتحفظها من الطغاة والهمج الذين يفسدون ويسفكون الدماء .**

اقترب المهدى منها . لمسها ببطء من اكتافها . لمس حاجبيها - قوسان يصيدان القلوب . وضع يدها عند شفتيها - عقيق يغطى عقدين من لآلىء الجنة نظمتهما يد الرحمن .. كانت عيناها مغناطيسان تجذبان الأفئدة .. ان محاسنها لا تحتاج إلى شعر شاعر , إنها وحدها قصيدة نظمتها يد الزمان لتكون آية الزمان .. مال بخده ناحية فمها - لا يوجد شهيقا ولا زفير . لم يشعر بنفسه إلا وهو يحتضنها لأول مرة مجهشا فى البكاء بصوت عال .. كان ينعيها بكلمات تخرج من نحيبه فتشق صدره ....

- ... قتلناك يا شمس . قتلناك بطمعنا وطغياننا . واستسلامنا وضعفنا . يا أجمل الملكات التى تأوى فى عينيها جميع الكواكب .. كانت الأشجار تتبعكى إينما تسيرى ويشرب الحمام من ريقك الثلجى . أين سيحط الحمام بعدك سوف يهرب السلام !! .. الزهراء التى قتلتك لا تدرى جريمتها . الزهراء التى عشقتك تجهل انها قتلت عشيقتها وأطفأت نور الشمس .. ها نحن ندخل مرة أخرى لعصر الجاهلية . نحن التوحش والتخلف والبشاعة والوضاعة وعصور البربرية .. يا وجعى .. يا وجعى .. يا دمعة كبيدة تجول فى فى الأجفان .

- ... نعم يا شمس انت فوق الجوارى والحرائر .. فوق النساء والرجال .. فوق الخلفاء والسوقة .. إلا أن الشقى من يدرك الأشياء بعد الفوات . كسرت قلبى بورد الحب قبل أن تقتلنى أخطاءى بسيف البغض ... لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياكى من أسباب دنيانا .. لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياكى من أسباب دنيانا .

.....

كان الخليفة يبكى وينعى شمس بكلماته ودموعه . ولكن مهران وبزواج أوقفاه على الأرض .. وطالبا منه أن يتماسك وأن يصدر أوامره بشأن الموقف .. لكن السنين أثبتت أن محمد المهدى لا يستطيع أن يتخذ قرارا واضحا حاسما فى إدارة الأزمات . لقد جاءت به الذلفاء إلى العرش وكانت كل الترتيبات من تدبير تنظيمها . ودفع به نسبه الأموى مع ضعفه الظاهر إلى مرتقى الحكم . وحين أضحى عاهل الدولة ألهه الجميع وقدسوه وصنعوه صنعا كمن يصنع صنما . واشترك الصنم مع صناعه فى سرقة أحلام البسطاء ومال النذور وقرابين الأضاحى .

والآن فإنه يجد نفسه وحيدا . ومهران يطالبه بإتخاذ قرار .. ! .. والذلفاء بذكاءها المعهود لا تحرك ساكنا وتنتظر ما تأتى به الحوادث , فبعد ثأرها لابنها من شنجول وجعفر وتمكنها فى عهد المهدى أضحت تعلم أن دورها فى " المعارضة المصطنعة ! " لا يستغنى عنه أى حاكم أو نظام قادم . وخصوصا انها مدعومة من الخارج .. و قد تدور الدائرة وتدفع بضعيف آخر إلى العرش يواليها وتواليه ... أما الآن فقد أضحى المهدى رهان محروق ولعبة خاسرة !! .

كان القرار الوحيد الذى اتأخذه الخليفة ولا يؤثر فى الأحداث هو أمره بقتل كهرمانة . فهى سبب ارتباطه بشمس وشعوره بالوهن لأول مرة بعد أن أحبها من كل قلبه . وهى سبب ثورة العامة ضده . وهى – من وجهة نظره – سبب كل المصائب التى ألمت له . . أرتمت كهرمانة على يد الخليفة تقبلها و تستطعفه أن يعفو عنها . ولكن مهران أشار إلى بعض العساكر فى الخارج أن يتقبضوا على كهرمانة وأن يذهبوا بها إلى المطبق ويلقوها ببئر الموت .. الخليفة بنفسه هو الذى اختار لها تلك القتلة الشنيعة .

بئر الموت هو بئر واسع عميق له جدار من البازلت لزجة الملمس . مظلم وكأنه القبر , اللهم من نافذة ضوء فى أعلى البئر لا يطولها المتهم ومنها تسمح بمراقبة عملية الإعدام من قبل زبانية الجحيم .. يلقون المحكوم عليه فى البئر , ثم يفتحون هاويس ماء واصل بينه وبين نهر الوادى . فيدخل الماء بتدفق سريع أحيانا أو كم بطىء أحيانا اخرى حسب درجة فتح الهاويس , وحسب الرغبة فى تعذيب المحكوم عليه . إذ يرى الماء يتدفق وهو لا يستطيع له دفعا , فيحاول يائسا سد منفذ التدفق بجسده وبظهره ولكنه لا يتمكن لتعدد الفتحات واتساعها . ومن هنا يغرق ببطء وسط صيحاته ونداءات الإستغاثة بعد أن تكون نفسه قد سحقت بالتعذيب المعنوى ومشاهدته نهايته بعينه .

وحين قبض عليها توسلت كهرمانة لرئيس الشرطة أن يرحمها . كانت تغريه يائسة أمام الخليفة الذى تكرهه قائلة أن حكم المهدى قد انتهى وسوف تأكله الثورة هو و جثة حبيبته المقتولة . وتناجيه بأن يراعى صداقتهما القديمة منذ عهد شنجول وبلاط الزاهرة الغابرة . . لكن مهران أجاب عليها والحراس يأخذوها ..

- أنا أول من يطيع ولى الأمر . وطالما لم يزل مولانا المهدى على العرش فإن أمره نافذ .

وغرقت كهرمانة فى بئر الموت ومعها أسرار الخلفاء والقصور ونواميس الحكم .. وقبلها ماتت شمس ومعها العفة والبراءة والصبح .. والأندلس ... ! .

.....

- **مهران** : أنصحك بالهرب يا مولاى قبل أن يعزلوك . فقد علمت أن المستكفى تحرك من طليطلة على رأس قواته ومعه الوحشان فهر بن الأشرم وزاوى بن زيرى وكلابهم من البربر . وأن الناس فتحت له أبواب قرطبة , وإذا دخل عاصمة الخلافة وبايعه الناس فى المسجد الكبير فسوف أجدنى مضطرا للقبض عليك إذا صار هو أميرا للمؤمنين . . آخر ما أستطيع أن أخدمك فيه هو أن أدبر لك ملابس إمرأة لتتخفى فيها .

- **بزواج** : ماذا تقول يا رئيس الشرطة ؟

- **مهران** : وأنت أيضا ستهرب .. وسأبقى أنا فى الزهراء فى استقبال الخليفة الجديد ..

- **الخليفة** : أهرب !! .. من يجرؤ على عزلى . قد عجز المستكفى أن يعرقل طريقى إلى السلطة وأنا تائها شريدا فى حوارى قرطبة والعامريون خصومى . فهل يقدر الآن أن يخلعنى وأنا الخليفة والولاة صنائعى .

- **مهران** : اختلف الوضع يا أمير المؤمنين وصار الناس خصومك . وهم الآن شوكة المستكفى مثلما كانوا شوكتك . سوف يضعون فيه أحلامهم التى أضاعها المهدى المنتظر فى الصيد والقنص والاستخفاف بهم .

- **الخليفة** : ما بالى أتلمس فى حديثك عبارات الشماتة .

- **مهران** : العفو يا أمير المؤمنين . . ولكن لا وقت للتردد , سوف يسفح المستكفى دمك إذا دخل قرطبة , ولن تلبث أن تواليه قبائل العرب كلها التى يئست منك واستنكرت أفعالك .

- **الخليفة** : اللعنة .. اللعنة على " كلب " و " لخم " و " كندة " و " والسكاسك " و " قيس " و " عبس " و " تغلب " .

- **مهران** : قد سميت قبائل العرب جميعا يا مولاى .

- **الخليفة** : والآن أدركت معنى الكابوس .. كابوس رجب المجذوب .. النار تأكل عرشى .. وأنادى على شمس لتنقذنى فلا تجيب .. أهزها هزاا فأكتشف أنها ..... **ماتت** .

- **بزواج** : كلمات مهران يا مولاى لا تدع مجالا للشك أنه قرر أن يبيعك , وأن يتركك وحدك تتحمل مسئولية أخطاءك على أساس أن العهد منسوب لعاهله , ان مهران أشبه بالعاهرة التى تنام فى سرير المتغلب .

- **الخليفة** : كلنا مجرمون . وكلنا ضحايا ... كلنا مجرمون . وكلنا ضحايا .

(4)

دخل المستكفى قرطبة دخول الواثق بصحبة فهر بن الأرشم وزواى بن زيرى وابن زيدون وابن عبدوس . وخلفهم ذئاب البربر الذين استعان بهم الأمير الأموى الثرى . وفى آخر الجيش ركب آخر يتوسطه هودج ولادة بنت المستكفى . كان الناس قد فتحوا له الأبواب وجيش الخلافة لم يحرك ساكنا للمقاومة , فكان دخوله أشبه بسكين حاد ينفذ فى قطعة من الزبد . . واننا لا نندهش كثيرا إذا علمنا أن الأرازل وسفلة القوم الذين منحهم المهدى المراكز العليا فى القصر والحكومة وجعل لهم العطايا ورفعهم إلى مستوى مشورته , نجدهم هم أول من يبايع للحاكم الجديد الوافد بعسكره فوق أمواج ثورة أخرى .

لكن دخول المستكفى لم يمر بسلام , إذ فقد سيطرته على قواته من البربر منذ اللحظة الأولى فاستباحوا المدينة نهبا وسلبا وقتلا , فكرهه الناس قبل أن يدخل الزهراء , ولم يمكنوه

من خلافتهم فى هذه المرحلة . وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها الإسبان لخلق مزيد من الإنقسام , فانقلب الملك جارسية على حليفه المستكفى وسير من قشتالة جيشا عرمرما يريد أن يدعم أمير آخر من البيت الأموى يدعى سليمان المستعين بالله للوصول إلى سدة الحكم . وأيدت هذا الأمير بعض ممالك الإسبان الأخرى حذوا لقشتالة .

وفى أتون الصراع على السلطة نسى كل واحد من هؤلاء مصالح العامة والبسطاء الذين يقتلون كل يوم .. وكان الصراع يدور تارة بإسم الدين . وتارة أخرى بإسم الوطن . وثالثة بإسم القومية العربية بالأندلس ضد البربر . ورفعت كل الشعارات الجذابة والألوان الزاهية التى تدارى الطمع والجشع وموات القلوب والضمائر . تلك الشعارت التى يقتل تحت راياتها الشباب والخلائق . . **وكم من شاب مات فى مغامرة مأساوية وهو يعتقد أنه يخدم الوطن والدين والديان** .

اختار الأهالى رجل آخر ليس بأموى لينصبوه خليفة عليهم فجاء اختيارهم لـ " على بن حمود " الذى لقب نفسه بالناصر لدين الله , وأعلن نفسه أميرا للمؤمنين , ثم أشترك فى التطاحن الأمير المستظهر بالله يدعمه تنظيم الذلفاء وصعلوك آخر يسمى نفسى المستعلى بالله . . وهكذا انقسم حال قرطبة إلى خطوط طول وخطوط عرض وصراعات تعلو فوق صراعات . كل تنظيم أو حركة أو ميليشيا ترشح عنها مرشح ما للسلطة والحكم , وتكون النتيجة شباب يقتل , وشيوخ تخضب لحاهم بالدماء , بل ماتت سيدات فى الشوارع وفسق بهن الدهماء والصياع وهن أموات ! .

ارتفعت الأسعار . عمت الفوضى والغلاء . تفشت المجاعة حتى أكل الناس الكلاب وأرتفع ثمن القطط .. كان الصراع على السلطة هو الرسالة التى يكافح فى سبيلها كل أمير أو مرشح أو حتى صايع – وكأنهم قد بعثوا لهدف نبيل – ولم يفكر أيا منهم فى مصلحة الأندلس الموحد . بل اتخذ كل منهم وسائله من الإعلام التى تصيح فى وجه الآخر بالشتم والسباب والتهم والقذع والسخرية . . وكانت وسائل الإعلام فى هذا العصر هى الشعراء , أو المنادين على البغال , أو صندوق الدنيا فى الأرياف , والأراجوز فى الأسواق والشوارع , ولافتات كتبت بالدم على الجدران .

كل شاعر يهاجم الآخر . وكل منادى فوق بغل يشتم البغل الآخر ! . حتى الأراجوز وهو مصدر الفرحة وباعث الإبتهاج حولوا وظيفته إلى السياسة فصار الأراجوز " مسيسا " يطعن فى الأشراف ويسخر من مرشح لصالح مرشح . وكان طبيعى والحال كذلك أن ينزوى أهل العلم والفن والفكر والأدب والقضاء والفلسفة والتاريخ .. بل أصبح البلطجية و والمجرمين والأفاقين والمزايدين والأراجوزات والبغال هم الأثرياء , لأن هؤلاء هم أداة المرشحين فى الدعاية والإعلام وتفريق الكلمة .

ومن المفارقات أننا أصبحنا نرى المرشحين يقتلون الشعب كل يوم وينتهكون حرماته وتتصارع دوامات مؤيديهم فى الشوارع والندوات والإجتماعات والمساجد - ومع ذلك يتخفون وراء لفظ الجلالة , بل يذوبون رقة وحنان وتنتفض أحداقهم بالدمع حين يذكر أمامهم إسم " الله " !! ...

- المستكفى **بالله !** ... المؤيد من البربر .
- المستعين **بالله !** ... المؤيد بالإسبان .
- الناصر لدين **الله !** ... المؤيد من الأهالى .
- المستظهر **بالله !** ... المؤيد من تنظيم الذلفاء .
- المستعلى **بالله !** ... مغامر " هاص فى الهيصة ! " .

وإننا لنلمح كم التدخل الخارجى لدعم المرشحين حسب مشروع كل دولة أو عصبة مما يثير دهشتنا وشفقتنا على البلاد وشبابها وأجيالها ومستقبلها . وكل مرشح يدعى أنه سوف يجدد الخلافة ودولة الإسلام ويكون هو " الخليفة " ! .. جميعهم ينادى بالدعوة والدولة . والرضا من آل الرسول محمد . وزمن الحق والمستحق . وعهد الحرية والعدالة .

دخل **مهران الصقلبى** إلى ديوانه بالزهراء ونظر إلى نفسه فى المرآة نظرة طويلة وشد بذته العسكرية فوق جسده بهمة وهو ينصب قامته وكأنه يطمئن شموخه .. .. وظل يحدث نفسه أن الأمن هو الباق وسط الصراعات والإنتفاضات . قد ينهار ويفقد السيطرة فى مثل هذه الظروف والثورات . لكن يظل هو دعامة الإستقرار التى ينشدها الجميع , فما أن ترسى الأوضاع على بر حتى يسارع صاحب السلطان فى مخاطبة ود الأمن .. بل يغازل القمع والبطش الذى يمارسهما هذا الجهاز العريق الموغر فى بطن التاريخ ... كان مهران ينظر فى المرآة نظرة الواثق وهو على يقين أنه وحده الباق بين جميع المؤسسات . وأن عليه الصبر والإنتظار حتى تنتهى مباراة الثيران فيسارع الثور الفائز بطلبه والتفاهم معه على الخطوط العريضة للقمع والشنق .

حقا .. عندما تتصارع الثيران فإن العشب وحده يموت .. أو " الشعب " وحده يموت .. ! .

فى الطرقات يصيح **رجب المجذوب** باكيا ...

- **غربت الشمس وماتت الأندلس .. غربت الشمس وماتت الأندلس .... يا طول ليل العرب .. وطنى يباع الآن فى عينى وتصرخ فيه أشلاء الضحايا .. وطنى الذى أعطيته عمرى يباع الآن فى سوق السبايا .. وطنى تشطره الأطماع شظايا ويرقد صامتا بين الحنايا .. وطنى الذبيح وحلمى الجريح يسقط بين أخطائنا بقايا .**

# # #

على بردعة فوق حمار يركب الخليفة المخلوع **محمد المهدى بالله** وقد تنكر فى ذى امرأة حتى لا يقتله الناس إذا رأوه أو عرفوه أو يذبحه أحد من الثيران المتصارعة .. وقد أمعن فى رسم الكحل بعيونه حتى يؤكد للناس **انه امرأة** إذا لمحوا عيناه من تحت البرقع . . وعلى دروب الصحراء العريضة تنزوى الشمس من بعيد .. وفى وقت الغروب .. يتوارى الحمار فى الأفق .

كانت آخر كلماته هو ينظر إلى قرطبة بالحسرة والألم ...

- وداعا يا قرطبة .. وداعا يا أندلس .. قرطبة المغوية .. التى تضىء وتحرق .. ملتقى الأضاد ومفترق الأحباب .. مجمع الجنة والجحيم .. مئوى التائه الطريد وطاردة المطمئن المقيم .. قرطبة أول الزمان وآخره .. المبتدى والمنتهى .. وداعا .. وداعا .. وداعا لا لقاء بعده .

تمت بحمد الله

... ويظل الأمـل متجدد

وتوالت الفتن على الأندلس وسعى كل مستبد طامع إلى اقتطاع إمارة لـه فـى ظـل الفوضـى العارمة وانهيار السلطة المركزية . حتى دخلت الأندلس فى عصر ملوك الطوائف .

ويبقـى الأمـل شاخصـا واليقين متجـددا بـأن أمتنـا لـن تمـوت , ورجالهـا الأفـذاذ القـادرين يتوثبـون لخـدمتها والـزود عنهـا ... فمـا أن خرجـت الأنـدلس مـن حـوزة المسـلمين حتـى كـان السلطان محمد الفاتح يدق أبواب القسطنطينية ويضم جميع الأراضـى التركية إلى بلاد الإسلام ويوغر فى القلب الأوروبى من الغرب والجانب الأسيوى من الشرق .

كان الفاتح يقيم الدولـة وينشـر الـدين دون إدعـاء بأنـه أميـرا للمؤمنين أو مـن نسـل الرسـول ونسب قريش - ودون أن يتشبث بجماعة دينيه تواليه ويواليها , بل كانت جماعته هى الملايين مـن أهل امبراطوريتـه المترامية الأطـراف ينصـر المسـلمين وينصـف المسيحيين .. وبعـد أن ظـن الجميـع أن أمـة الإسـلام قـد ذبلـت وشـاخت وهرمـت مبادئهـا , إذ بـدين الله ورايـات الحـق ترتفع خفاقة فوق قلاع وحصون لم تعرف العدل يوما ولا دخلها نور الإيمان قط .

انتصـر الدين برجاله و أثبت المسلمون فى القسطنطينية أن العبـرة ليسـت فـى قمـاش يخفـق مكتـوب عليـه آيـات الحـق والعدل , وإنمـا العبـرة فـى القلـب الـذى يخفـق بتلـك المعـانى الخالـدة والإرادة الحقيقيـة التـى تسـعى لهـا . . إعمـار بيـد وسـيف الجهـاد باليـد الأخـرى وبينهمـا قلـب المؤمن .

وقد يشاء الله فنفرد لملحمة الفاتح روايـة أخـرى . وقد تسبقنا الأيـام بإنتـاج روايـة عظيمـة يشهدها واقع أمتنا وحاضرها بإرادة أبناءها الأبرار , فنشترك جميعا فى صياغتها .

مدحت عبد الرازق

الصور

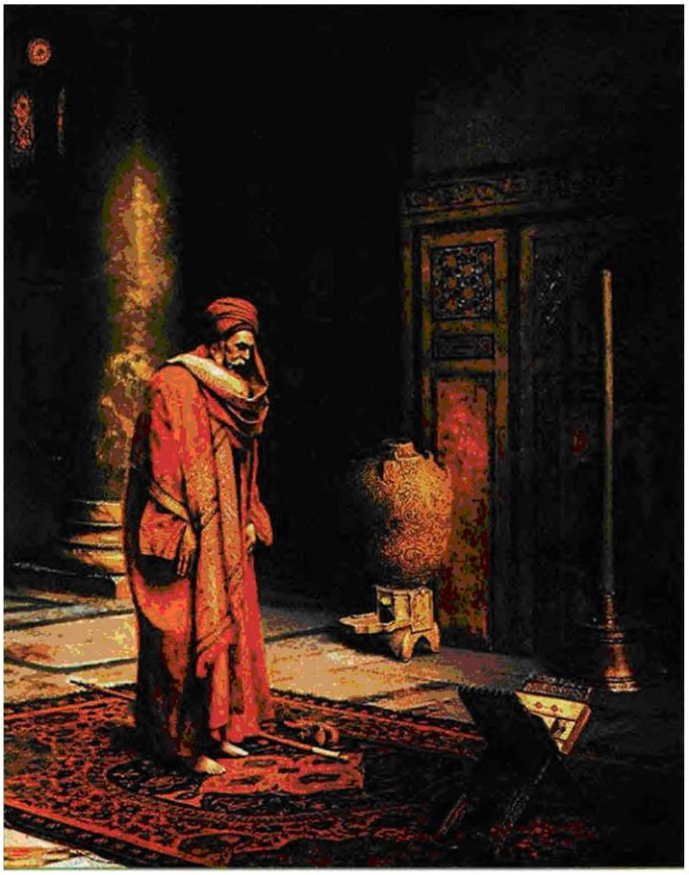

الإسلام يدخل الأندلس

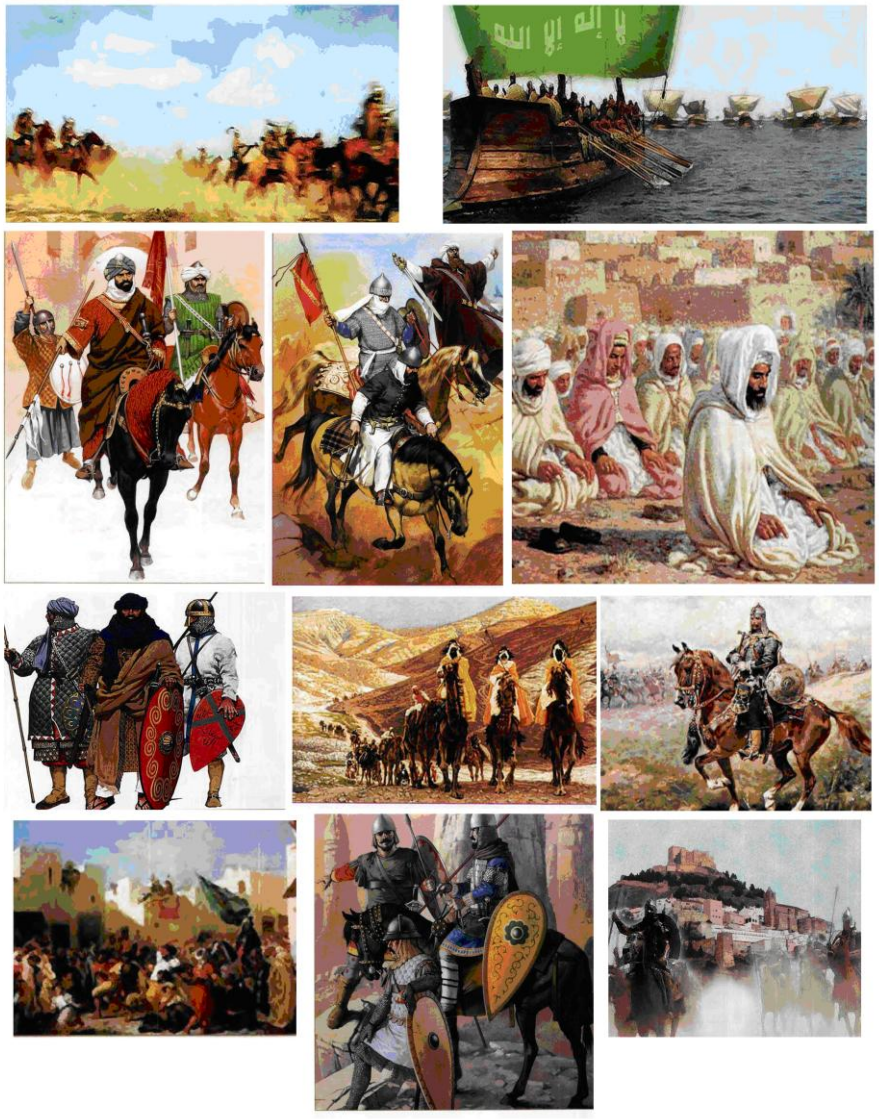

حسابات الشمس

وكذلك قالوا عن قصر الزهراء: كانت الشمس تدخل من تلك الأبواب، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وجدرانه، فيعكس نوراً مبهراً يسلط على هذا الإناء، فإذا أراد أن يفزع أحداً من المجلس أمر أحد خدمه بتحريك الإناء، فينبعث نور من الزئبق المتحرك الرجراج يملأ جو المجلس بريقاً عجيباً، فيشعر المرء كأن المجلس يدور حول نفسه، وتُستقبل الشمس أينما كان المرء جالساً.

ومن عجائب قصر الزهراء: الحوض المنقوش بالذهب، والحوض الأصفر المنقوش بالأخضر وبالصور والتماثيل، قالوا عنها: لا يمكن أن يُثمَّن بمال، حُمل الحوض من مكان إلى مكان من البحر ثم نصب في القسم الشرقي من دار الملك المعروف بالمجلس المؤنس الجميل الذي يطل على حديقة غناء، وجُعل فيه اثنتا عشرة صورة "تمثالاً" من الذهب الأحمر مرصع بالدر الغالي.

الغرف والاعمدة موضوعة في أماكنها بحيث تستبقل الحجرات الشمس في الشتاء أكثر منه في الصيف.

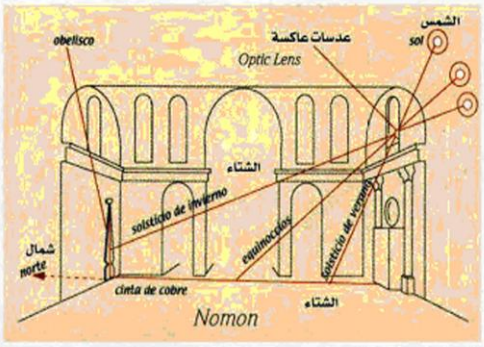

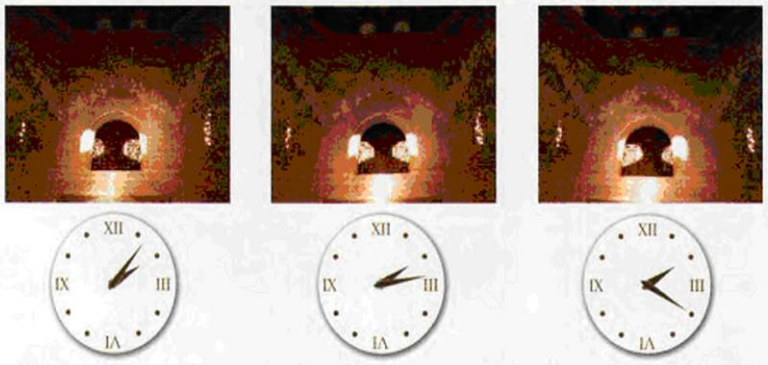

قرص الشمس الذي كان دليلاً حياً لمعرفة الوقت

إحدى ممرات قصر الزهراء

بقايا من قاعة العرش
بمدينة الزهراء الخلافية بقرطبة

جزء من غرفة نوم الخليفة

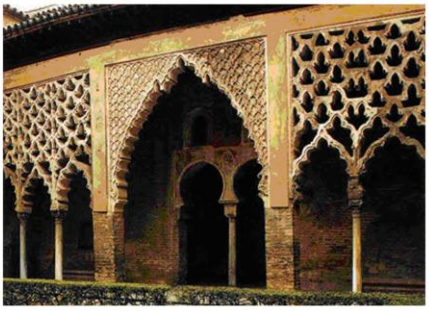

البوابة الداخلية لأحد قصور
أمير المؤمنين بالزهراء

المشهد من غرفة أمير المؤمنين

قصر الحمراء بغرناطة

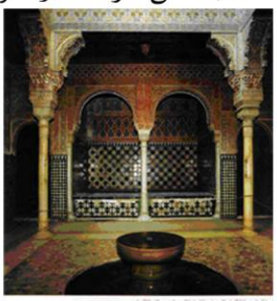

حمام الخليفة

حدائق الزهراء

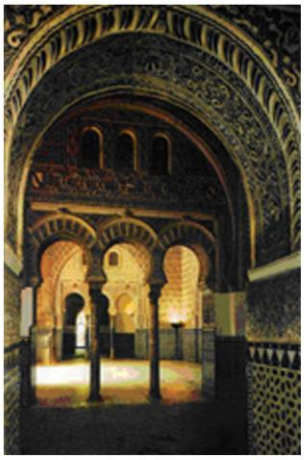

مدينة الزهراء لقصور الخلافة ..
حيث برع المسلمون فى تزين و
زخرفة مساجد الله وقصور الخليفة

مسجد قرطبة من أعلى

الفناء الخارجى لمسجد قرطبة

مسجد قرطبة من الداخل

كان المسجد أداة للعبادة وإدارة شئون الأمة

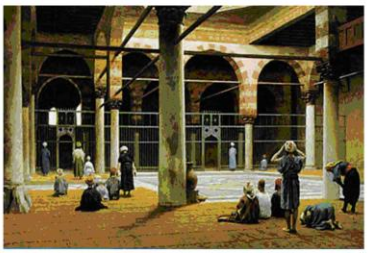

حمام السباحة فى قصر العقاب

قصر العقاب

ابريق ماء على شكل طاووس من مظاهر ترف الخلفاء فى الزهراء

محرقة العطر لتعطير أجواء القصور

تطور روافع الماء فى الأندلس .. و الصورة لساقية الرفع من نهر الوادى بقرطبة إلى مدينة الزهراء للخلافة

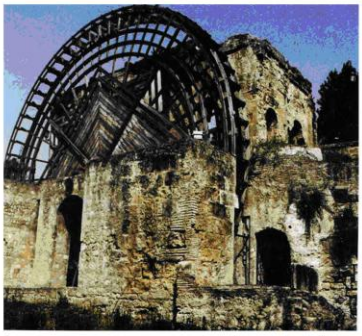

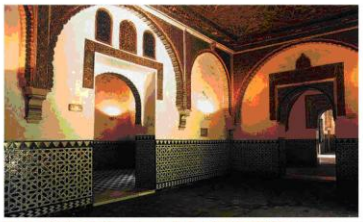

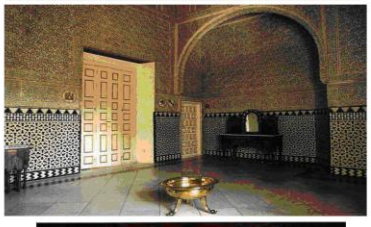

صلات من القصور الإسلامية فى الأندلس .. الأعمدة رخام والجدران مزينة بالفسيفساء والأصداف

المدخل إلى مدفن خلفاء بنى أمية بالزهراء

من الحياة

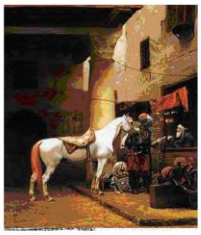

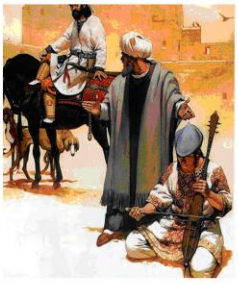

الجوارى من أسواق النخاسة إلى مخادع الخليفة

الترف والترهل والسقوط

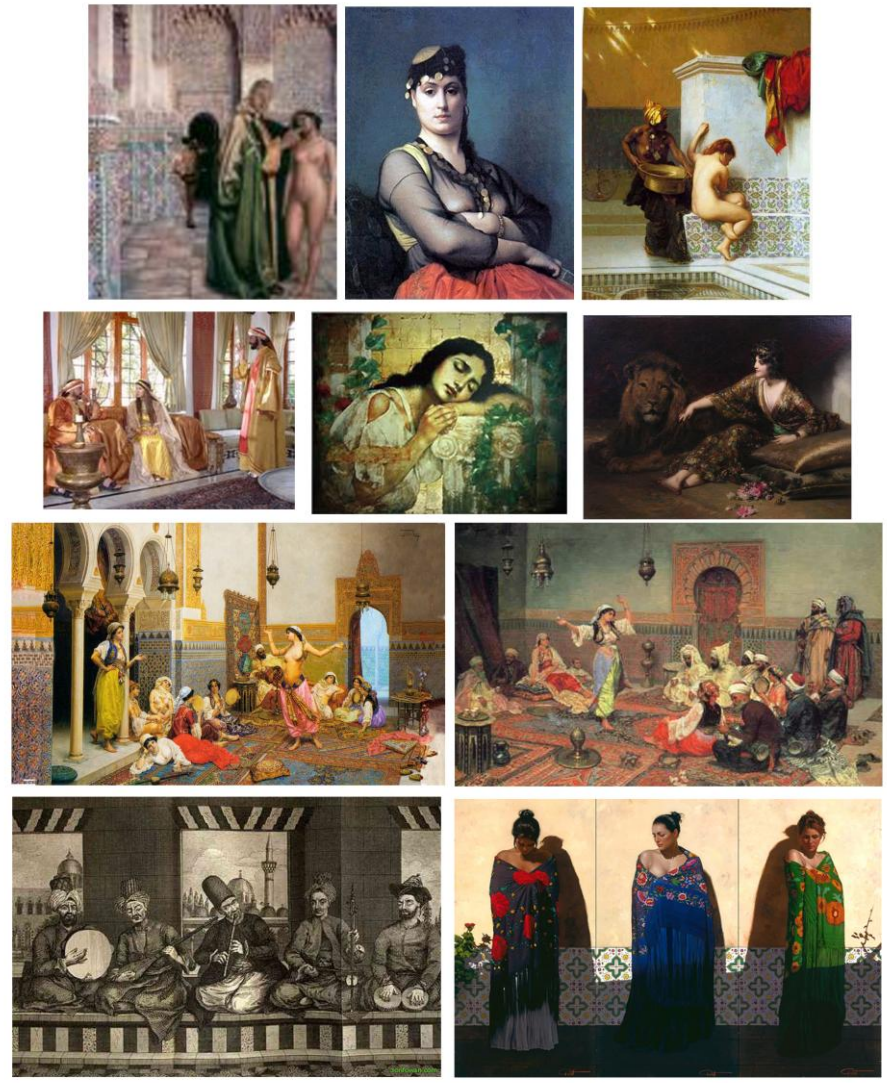

معتقل المطبق الرهيب.. والقمع بإسم الدين

نماذج من وسائل التعذيب

ساقية الموت

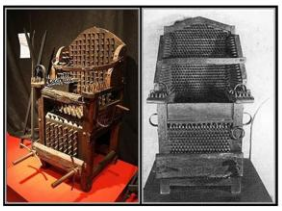

كرسى الخوزقة

مقلاع ثدى النساء

حمام الشمس مع الجلد

التعذيب بالجرزان

المحقق والجلاد

الإعدام بتمزيق الجسد حيث تربط أطراف المحكوم عليه من أرجل ويدين إلى أربع خيول ويسير كل حصان فى ناحية عكسية

الإعدام بعصر الرأس

الدعوة والدولة والتنكر للوعود

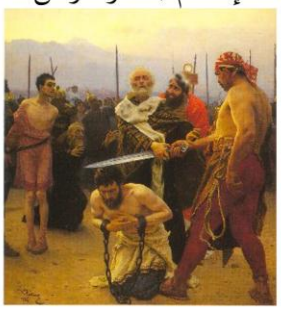

الإعدام المباشر بالسيف – وهو أريح الوسائل ..! .

الـفــهـرس

الـفهـرس

الإهداء **3**

الـطـغـاة شـرط الـغـزاة **4**

أضـواء عـلـى الأحـداث **5**

افـتـتـاحـيـة **8**

(1) قـرطـبـة **10**

(2) الضبع يمتطى الثورة **21**

(3) انهم يألهون الـطاغية **33**

(4) قـبـة الـــورد **45**

(5) جـنـة الـخـوف **56**

(6) قـحـط الـرجال **67**

(7) غروب الـشمس **87**

ويـظل الأمـل مـتـجـددا **107**

الـصـور **108**

الـفـهـرس **119**

للتواصل مع الكاتب

Facebook : medhat_razek@yahoo.com

Email : medhatrazek@gmail.com

الناشر

دار المجد للنشر والتوزيع
ggaammall@gmail.com
موبايل : 01120595980
جميع حقوق النشر محفوظة C

رقم الإيداع : 4112 / 2013

الترقيم الدولى : ISBN 978 - 977 - 90 - 0415 - 0

نبذة عن الكاتب

مـدحـت عبد الرازق

* أديــب ومفكر سياسى

مواليد الإسكندرية 1977

* خرج من معطف التاريخ ليعيد بعث الرواية التاريخية فى قالب عصرى .

* له العديد من الدراسات التى أعتمدت المرجعية التاريخية رؤية لتناول أزمات الواقع السياسى المعاصر بالكشف والتحليل ... منها مقالات - حتى لا نبدأ من الصفر .. بين الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية .. مصر ثراءا فاحشا وفقرا مضطجع .

* فى كتابه (إسماعيل مصر) يتحدث بتحليل سياسى جذاب عن أمن مصر القومى فى الجنوب , وضرورة بعث قوتها الناعمة بإفريقيا .

* يتحمل الآن مع مجموعة من المفكرين والمؤرخين الشبان مسئولية تأسيس مدرسة جديدة تعتمد على **إنسانية التاريخ** فى رواية الحدث .. إنطلاقا من فكرته عن الثورة الثقافية التى تبدأ بإعادة قراءة التاريخ .

المجد للنشر والتوزيع
M G D